
عبد الحميد البرنس
تداعيات
في بلاد بعيدة
قصص



عبد الحميد البرنس

مواليد السودان ١٩٦٧

يعيش بين مصر وكندا وأستراليا

صدرت له مجموعة "تداعيات في بلاد بعيدة"، القاهرة، طبعة أولى - ٢٠٠٢

ملف داخل كومبيوتر محمول، دار شرقيات، القاهرة - ٢٠١٠

email:

ourneeds1@yahoo.ca

تداعيات في بلاد بعيدة



تداعيات في بلاد بعيدة

قصص

عبد الحميد البرنس

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢
الطبعة الثانية، دار شرقيات، ٢٠١٠

دار شرقيات

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٢٣٩.٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨
sharqiyat2010 @yahoo.com
غلاف: أحمد كامل

البرنس، عبد الحميد
تداعيات في بلاد بعيدة : قصص / عبد الحميد البرنس — ط ٢.
— القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
٩٠ ص ؛ ١٤X٢٠ سم.

رقم الإيداع١٥٨٦١ / ٢٠١٠ تدمك ISBN 978-977-283-342-5

قصص — العنوان
ديوى ٨١٣

تداعيات في بلاد بعيدة

قصص

عبد الحميد البرنس



إلى خطى أماني عباس

الأكثر لوعة في هذا العالم

فالذين يطلبون الغفران

إنما يغسلون قلوبهم

وينشرون فيها العطر

باولو كويليو

خواتم

طريق

تمهل أبي في مشيته قليلاً. قال "السلام عليكم". رفع رجل يده اليُمنى، قائلاً "وعليكم السلام". ثم تابع خطواته البطيئة الصاعدة في الاتجاه المعاكس. "مَن هو"، سألته. "عابر سبيل"، أجابني. حانتْ مني التفاتة. كان يختفي عند منحنى الشارع المُترب في هدوء.

عودة

قالت دقات قلبي المتسارعة: "أنا.. قادمٌ... من مكان بعيد". وكي أُحقق المفاجأة كاملة، وضعتُ الكفَّ المرتعش أمام "العين السحرية"، وقلت: "أخيراً". لكنَّ امرأة، فوق الأربعين، تفتح باب الشقة المقابل، وتقول لي: "لا أحدَ... هناك".

غلام

وهبني قطعة حلوى. شكرته. "لدي منها الكثير"، همس. تبعته. توقف أمام منزل غريب. حاذيته. أدخلَ المفتاح. لاحتْ عُلبة مذهبة. نظرت إليه. ابتسم. ملأت جيوبي. اقترب وتلاحقتْ أنفاسه. كان لون الوسادة أبيض.

وقفة

تسللا. كان يتوسطهما طفل. انتحيا جانب الباب "المغلق". لم تكن المقاعد خالية. أطرقا. أخرج من جيبه عُملات ورقية صغيرة. نظرتْ إليه. شرع يعدّها. توقف "المترو". استبقى ورقة واحدة. فجأة اعتصرت يده وبكت.

صديق

وتسمَّرتْ نظراتي على شاشة "التلفاز". أشعر كأن بِركة من الأسى تندلق على قلبي. منذ ساعة، ساعة واحدِة، لا أكثر، هاتفني صلاح. "أنا في انتظارك"، قلت له. وأفقتُ، آخر الليل، على نهاية "الإرسال"، وعلى وقع طرَقاته المتتالية. "ها... قد وصل"، تمتمتُ عبر الممر المُفضي إلى الصَّالة في شرود. وفتحت الباب. "إزيك"، قلت له. وقدته برفق إلى الداخل. هناك، في الخفاء، بين جدران الغرفة الخالية تقريبا من أثاث، ارتمى على ركن قصي، وشرع مثل طفل وليد في البكاء. "ما بك"؟، سألته. لم يُجب. آنئذٍ خرجتُ إلى البلكونة ريثما يهدأ قليلاً. كان بكاؤه يأتيني خافتاً مُتقطعاً على فترات. كنتُ أنظر إلى أعلى. كانت السماء النجمية الداكنة بعيدة ونائية تماماً.

نيران صديقة

حيْرة

عند زوال الشمس، ولمدى ثلاث سنوات متصلة، كانت تذهبٍ في أيام الخميس من كل أسبوع إلى قائد العسكر، الذي يمِتّ إلينا بصلة قرابة بعيدة، لتسأله نفس السؤال:

– "أقتيل هو..

أم أسير"؟

أغلب الوقت، كان يزجرها. وأحياناً، أحياناً جدُّ قليلة ومتباعدة، كان يشفق عليها.. يُطمئنها:

"بنتَ العم طاهر.. أنا رجل مبادئ.. كيف تطلبين مني الكتابة في أمر عودته؟ ثم هو بخير.. وشرفي العسكري هو كذلك.. ألا تصدقين؟.. هاهو التقرير أمامي.. لم نصب بضرر جسيم. إذن، ألا تسمعين الراديو، يا امرأة ؟.. فبالأمس فقط... تعرّض جيش العدو لخسارة موجعة"؟

كانت تخبرني، آخر الليل، بما دار بينهما.

وكان يُصادف، حين تعود من رحلتها الليلية، أن يمر بها عدد من الجنود العائدين لتوّهم من الجبهة لسبب أو آخر. كانت

تستوقف مَن تراه "مناسباً". وكانت تشعر، في كل مرة تفعل فيها ذلك، وكأن اتفاقاً خفياً قد نشأ فيما بينهم على أن لا يقولوا لها شيئا سيئا حدث له هناك... على أرض المعركة البعيدة النائية.

كانت تقول للواحد منهم:

"من قبيلة الأشراف.. فرع بني العباس... ذاك اسمه... وتلك أوصافه. حسناً، أقتيل هو.. أم أسير؟ قل لي يا ولدي.. فأنا أمّه.. تكلّم.. ألم تقابله هناك؟ لا تصمت هكذا.. قل لي.. تكلّم يا ولدي.. فأمر المؤمن الصبور كله خير.. قل لي.. تكلّم... لا تخش شيئاً".

كانوا يكتفون عادة بهزّ أكتافهم.. بالصمت.. وبمواصلة أغنيات تتوسل إلى حبيب له فخدان مستديران ومصبوبان كدوائر نداء خافت بعيد. إذ ذاك.. إذ ذاك فقط.. كانت تلعنهم.. وتعاتبهم بصوتها المترع الحنون: "الحرب اللعينة أكلت عقولكم.. ثم ما هذا الغناء الفاحش؟.. لقد أصبحتم مجانين.. لا تراعون حتى حرمة الطريق.. وامرأة في مثل سنّي!... احمدوا الله أن عاد بكم سالمين".

لكنّ واحداً منهم... (واحد فقط... مازال يرتدي بزّته؟.. ويتوكأ على عصا مقوسة ومصنوعة من خشب السنط المتين).. قد ربت ذات مساء بعيد على كتفها..... وقال:

- "ليس هناك..

سوى الانتظار..

يا خالة".

هناك، أسفل عامود النور، حيث كان يتمايل في وقفته بُعيد قدميها الواهنتين، وقفت تتأمّل آثار السنط المتناثرة في غير مكان...

كانت تقاوم. تنحني على نفسها. تغالب سقوط دمعة بدت قريبة إلى درجة الإعياء والتشظي. أخيراً رفعت رأسها. ونظرت ناحيته. "لقد اختفى"!... لم يعد له من وجود! قبلها، كان يوغل في قلب العتمة بساق واحدة. "المسكين"، قالت. ثم استدارت عائدة في هدوء. بينما لا يزال صدى كلماته الأخيرة يرن داخل أذنيها المسحوبتين للوراء:

- "ليس هناك..

سوى الانتظار..

يا خالة".

منذ تلك اللحظة، لم تعد تغضب من مرح الجنود العائدين.

"المساكين.. لقد واجهوا الأمور الصعبة هناك.. ثم ما عيب الغناء على أية حال، يا ولدي؟ لو أن قريبي القائد الهمام المظفر.. ذهب إلى هناك ليوم واحد.. (تضحك).. لكن صاحب

الكرش السمين.. لا يذهب. يشرب الماء البارد فقط.... ويتثاءب".

كنت، أثناء غيابها، أعيد قراءة الصحيفة. وفي الوقت نفسه، أستمع لما يردده عادة المذيعون على رءوس الساعات: "هذا.. وما زالت قوات المشاة الباسلة تمشّط المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية.. بحثاً عن فلول المتمردين الهاربة.. هذا.. وسنذيع عليكم تفاصيل عمليات "سيف العبور" عقب انتهاء هذه النشرة الإخبارية... مباشرة".

هكذا، كنت أنقل إليها البشائر.. "بشائر النصر المبين".. متطلعا من آن إلى آن إلى بريقٍ عينيها الغائب منذ أمد بعيد. لكنها، لدهشتي الشديدة، كانت تغير مجرى الحديث.. لتغرق نفسها في تفاصيل الاحتفال الذي ستقيمه بمناسبة العودة.

لقد خططتْ وأعدت وهيّأت نفسها لكل شيء، عدا شيء واحد، ظلّ قابعاً هناك، في مساحة الصمت الكثيف القائمة بيننا أحياناً. شيء لا يريد كلانا النطق به. كانت تقول: "ماذا لو أقمنا (يا ولدي) ليلةِ عُرسه في ذات الليلة الميمونة؟ قل لي... ألا يكون ذلك جميلاً؟ ما رأيك"؟

كنت أومئ موافقاً.

وكان، حين تغلق على أمل عودته جفون عينيها المتعبتين، يعنُّ لي هذا السؤال:

"أيعود أخي الليلةَ.. من رحى الحرب الأهلية.. البعيدة.. الدائرة هناك.. ويطرق.. كعادته.. باب غرفتي المكدسة بالأوراق.. أم سيظل.. قبالة صورة أبي.. مُعلقاً على جدار الصَّالة.. مثل نور نافذة بطابق معتم آخر الليل"؟

خليفة

مع علمه، بُعيد منتصف ذلك النهار، أن المنزل خال تماما من بقية سكانه، إلا أنه واظب على ممارسة عادته الأكثر خصوصية في العالم بالتكتم الشديد نفسه، فإذا مضت دقائق تناهت إليه خلالها زغاريد عرس ابن الجيران، عابرة أثير الشارع الصغير المترب، أخذ يغالب للمرة الثانية حرقة الصابون وهي تسري في تجويف شيئه دونما تألم.

لم يغادره إحساس النشوة بعد، حين رآه هناك على ضوء الشمس المتسرب من خصاص الباب، وهو يميل مترنحاً مثل رجل ثمل يسير محاذرا علي سطح أملس غمرته مياه الغسيل الرغوية، قبل أن ينكمش بالبطء نفسه نحو منابت الساقين، منزلقا دافئاً متقافزاً من أعلى انحدار فخذه الأيسر المنبسط على أرضية الحمّام الأسمنتية المبتلة الرطبة، بينما لا يزال غناء الصبايا يهب من الخارج، شاكيا جفاء الحبيب وأسى رحيله إلى مدن الحنين البعيدة بلا وداع:

"الليلةْ ... مُسافِرْ

.....

أنا أنا

.....

ما جَبَرَ الخَاطِرْ

.....

.....

دي كم سنة"؟

لا ريب أن جَدّه قد أورثه "فراغ العين"، ذلك تعبير تناهى إليه لأول مرة من حكايات عمّته "الأرملة العاقر"، التي ظلت تشاركه الحجرة منذ أن مات زوجها الثالث "بين أحضانها" كما يشاع داخل الأسرة في الخفاء قبل ثلاثة أعوام ونيف.

"رحمه الله، يا ولدي".

هكذا، أخذت تقرأ له، في إحدى أمسيات الصيف الراكدة، شيئا من كتاب ربّ الأسرة العتيق، قائلة: "أربع كن في عصمته على الدوام". الخامسة تحل بسلاسة في مكان الأولى أو الراحلة، لكأن سحراً قدريا كان يدفعهن لقبول مصيرهن اللائى كن يعلمنه مسبقاً من دون أدنى "تذمر". تلك كانت "يا ولدي" عادته. يرمي يمين الطلاق ثلاثاً، ثم يقودها في موكب الهدايا الطويل إلى أهلها محملة بالمال و"كريم العطايا والذكريات"، قبل أن يطرق باب بيت آخر يعرف كنوزه المخبوءة وتعرفه جيداً، فإذا أشرف على الموت ذات ليلة شتائية دامسة أكثر من الدعاء، طالباً من الله بمقلة باكية أن يورثه في الجنة من بنات الحور العين "ما لذَّ وطاب".

"آمين آمين".

وتضحك عمّته التي تركها جَدّه حين غادر العالم رضيعة، وهي تسافر مرة أخرى، في ثنايا ذلك "الماضي الجميل"، قائلة كعادتها بنبرة صوت ظل يهدجه الشوق والفخار وذلك الحنين المقيم مثل حسرة غامضة إلى معايشة ما لم تعايشه من قبل: "رحمه الله. كان جَدّك فارساً بحق. يقتلع شجرة الطلح في ليالي دخلته من جذوعها من دون أدنى معونة من فأس أو أحد. رحمه الله. لم يكن أمره من أمر رجال هذا الزمان. وما فعله كان برضاهن وفي الحلال".

"كالطفل في بستان المانجو". هكذا خطر له أن يتخيل جدّه. بالكاد يتذوق بيده اليمنى ثمرة، ثم ما يلبث وأن يمد يده اليسرى ضاغطا بها على ثمرة أخرى، بينما عيناه لا تنفكان أثناء ذلك من قضم صدور الأفرع البعيدة المستترة خلف حجاب الموت، تلك المثقلة حدَّ المسرة وحسن المآل بثمار ما "لم تسمع به أذن ولم تره عينٍ ولم يخطر مِن قبل على قلب بشر". يا لها من فحولة، بددت الثروة، ولم تنجب، على مدى سنواتها التسعين، سوى والده وعمّته عند الزيجة الحادية عشرة والأخيرة.

هو على خلاف جدّه، لا يدري على وجه الدقة، كم طيف امرأة من معارفه ونجمات السينما، جار باللذة على سرير خياله منذ أن بلغ الحلم قبل عام أو يزيد؟

ما إن يتوغل لحظتها في ثنايا دهليز ضيق يتوسط ملتقى ساقين بيضاوين يُشبه مدخله المُشعر بقعة العسل وهي تكاد

تغوص في كوب الحليب الطازج، أو يشد إليه عجيزة خلاسية أبصرها ذات نهار قائظ وهي تروي ظمأ العيون على امتداد شارع تحف جانبيه واجهات المحلات الزجاجية؛ حتى يدفن رأسه في صدر أبنوسية غادرت الأدغال للتو.

يظل على هذا المنوال من ضروب الشراهة، لا يلوي على شيء آخر، إلى أن يقذف ماء الحمام في رحم البالوعة بآخر دفقاته. عندئذ فقط يداهمه إحساس بالذنب لا يطاق. ومع أنه استعاذ بالله في سره من همزات الشياطين آلاف المرات، إلا أنه ما برح يراوده فور أن يخلع سرواله ويشتم رائحة الصابون، الصفيرُ يطلقه فم الراعي حين يرفع البعير عنقه ناظراً إلى حوض الماء في حذرٍ، أو أنينُ الأنثى ساعة أن يلهث في خصومة ساقيها طالباً المزيد من الرواء.

كان غناء الصبايا العذب الجميل المصاحب لإيقاع "الدلوكة" لا يزال ينساب أعلى من لغط المحتفلين أسفل السرادق الضخم الذي أقيم منذ الصباح الباكر أمام بيت الجيران، والصقور تحلق في قبة السماء البعيدة الزرقاء الصافية التماساً للبرد أو احتماء من شواظ الشمس التي بدت في مَيَلانها المحدود نحو الغرب وكأنها غاضبة من أفراح البشر الصغيرة؛ عندما خرج أخيراً من الحمّام متجهاً عبر أرض الحوش الترابية الحارقة إلى حجرة شقيقاته الثلاث، حيث درج في غيابهن منذ مدة على تصفيف شعره الماعزي قبالة "تسريحة الخشب العتيقة"، تلك القطعة من الأثاث ذات

المرآة المصقولة والنقوش الذهبية الباهتة التي صاغتها بعناية أيدي الحرفيين خلال الربع الأول من القرن العشرين في روما، كانت الأثر المادي الوحيد الذي دلّ الأحفاد فيما يبدو على وجود ثروة الجدّ الآفلة.

كعادته في مثل هذه الأوقات النادرة التي يكون فيها داخل البيت وحيداً، شرع يتخيل بنوع من الفخر نساء جدّه، وهن يتعاقبن على الجلوس أمام المرآة نفسها، وقد لاحت على وجوههن إبتسامة، كما لو أن سرير جَدّه في حجرات اللحظة ميزان عدل كفتاه رغبة ومتعة.

حين أنهى تماماً تنظيف المشط من خصلات شعر الشقيقات الثلاث العالقة بأسفله، تذكّر أن عليه حسب أوامر والدته أن يشارك الجيران أفراحهم منذ وقت مبكّر، لكنّ قلبه توقف، وكيانه كله تجمد، وقد بدا تماما مثل تمثال قدّ من الفرحة، حتى أن دوي البنادق الذي مازج الزغاريد في الخارج فجأة لم يُحرّك في داخله خلجة واحدة. لو أن أحداً من الناس سئل عن معنى السعادة وأبصره على تلك الهيئة الطاغية من السرور لأشار إليه دونما تردد. آنذاك، رآه لأول مرة هناك. كان يطل من جوف المرآة نصف المُترب على استحياء. شاربٌ خفيف نابت. لا تكاد تلحظ وجوده عينا خاطبة "شبمه". لكنه بدا له في تلك اللحظة ولسبب ما أكبر حجماً من شارب جدّه القابع في وضع الأبد بين حواف برواز الخشب الباهت

المعلق على أحد جدران الديوان العتيق منذ أن تفتحت أزهار وعيه الغضة على الحياة.

هكذا، في ظرف أقلّ من دقيقة واحدة، أخذت حجرة الشقيقات الثلاث تشهد ما يُشبه طقوس الاحتفال العفوي الحار. فرد إذ ذاك ذراعيه كطائر. ودار حول نفسه بحركة لا شعورية. ثم قرَّب وجهه من سطحٍ المرآة أكثر فأكثر، وهو يرفع يده في اللحظة نفسها محاولاً كتم أنفاسه اللاهثة متحسساً متلمساً جاذباً برفق ذلك الزغب الخفيف المتقوس أسفل منخريه، قبل أن تنهار وتغرق جبال أفراحه كما طفت في بحر عواطفه المتلاطم دفعة واحدة.

لكأن طلقة من بنادق المحتفلين في بيت الجيران قد ضلت طريقها في الفضاء إلى قلبه. لقد خيل إليه على حين غرة أن بعض ثياب شقيقاته الداخلية يمد لسانه ساخراً من فرحة دخوله "المباغتة" إلى "عالم الرجال".

ما يثير حنقه، ما يحرق شغاف قلبه، ما يقلب نظام العالم القائم في رأسه إلى فوضى لا نهائية، وما يتلف أعصابه حقاً؛ هو عدم اكتراثهن أحياناً بإخفاء مثل تلك "الملابس الداخلية" في "مكان حصين لا تطاله عين أولئك الغرباء".

يمكن تخيل أبعاد الفجيعة جيداً "لا قدر الله".

لو نشب خلاف وصل إلى حد الاحتراب بينه وبين أحد أصحابه ممن يزورونه في البيت من وقت لآخر، لا شك أن

الأمر لن يتوقف عند حدود اللكم والرفس وتبادل القذف بالحجارة الصغيرة فحسب، بل سيقف "ذلك الصاحب الخائن" على قارعة الطريق وضح النهار، ويسبه أمام الملأ بأعلى صوته قائلا:

"يا شفيق ذات اللباس (الأخضر)"!.

عندئذ هل يوجد صاحب ضمير يقظ، أو شاهد عدل في "زمان المظالم"، من بين أولئك المارة، أو الجيران، أو حتى عابري السبيل الغرباء؛ يمكنه أن يتحرّى الدقة عن حق لمعرفة متى وأين وكيف رأى "صاحبُ السوء" ذلك اللباس (اللعين)"؟.

واصل التحديق في شاربه الوليد على مضض، متظاهراً وكأن شيئاً لم يكن من "سفاهة النساء"، وقد عزم على أن يلقنهن درساً آخر في "مبادئ الحشمة"، على الرغم من أنهن يكبرنه بسنوات متفاوتة، على أن ذلك سيكون في الغد لا محالة، عقب انتهاء آخر مراسم عرس ابن الجيران مباشرة. أما الآن، الآن الآن، فلا شيء يمكنه أن يفسد عليه فرحة دخوله "المباركة" إلى "عالم الرجال المهيب".

للأسف، ومع سبق الإصرار والترصد هذه المرة، أخرج لباس أسود قاتم لسانه من جوف المرآة "اللعينة" نفسها، ذلك "العنيد" المستلقي على عجيزته عند صدر السرير وراءه، ما لبث أن باعد ما بين ساقيه السمراوتين متسائلا:

"ما الذي تفعله الآن في حجرة النساء أيها الصبي"؟

لكأن قطعة من حديد هوت على رأسه، فقبل أن يستوعب كم "الوقاحة" الصادرة من ذلك اللباس الأسود، فطن هذه المرة إلى ثرثرة لباس أحمر قان، ظلّ بدوره يحرّك لسانه القرمزي يمنة ويسرة، مقتحماً في غارات متتالية أقصى حدود الجانب الأيسر من مجاله البصري، مطلقاً مثل طائرة "أف ١٦" قذائف تساؤلاته الموجهة نحوه بلا رحمة أو شفقة، قائلا ببرود الثلج ووقاحة الأراضين السبع:

"عجباً عجباً، يا ذا الشارب الكث الغزير، مثل حقل الحنطة أواخر الشتاء، لماذا (دامّ فضلك) لا تريد أن تذكر لنا كم عام مضى الآن على يوم ختانك القريب"؟

"الدم.. الدم الدم". "الصمت أضعف الإيمان". "القضاء على سفاهة النساء". هكذا أيقظ شعارات حربه "المقدسة"، وهو يُشير بحزم إلى "حامل لواء الفضيلة" الذي أخذ وضع الاستعداد في أعماقه السحيقة أن "سر إلى الأمام قدماً".

كانت طبول المعركة الوشيكة تشق فضاء صدره المستعر بآلاف الضربات الرعدية، والعروق تدفع بإمدادات المؤن والذخيرة صوب جموع كتائب الشرف المتأهبة داخل رأسه، عندما استدار بقوة لم يعهدها في نفسه من قبل، ساحباً ملاءة السرير على الأسود، واضعاً وسادتين فوق بجاحة

الأحمر القاني، عائداً مثل فيلق إلى وقفته قبالة المرآة، حيث استأنف منذ ثوان ثورته التصحيحية "الدائمة".

منذ ساعة، قبل أن يشتم رائحة الصابون داخل الحمّام، كان قد تفقد لأمر ما المطبخ والديوان وحجرة والدته ناظرة المدرسة الابتدائية وتلك الحجرة القابعة في الركن الشرقي من الحوش والتي ظلّ يتقاسمها مع عمّته "الأرملة العاقر" منذ فترة. أثناء ذلك، تغاضى عن رؤية لباس أمه الحائل وهو يتدلى من إحدى زوايا سرير الخشب العريض في وجوم، وإن لم يغادره لثانية واحدة إحساسه الثقيل المقبض بلا جدوى جهاده المستميت المحتدم كضربة رعد، ذلك أن "من العبث استمرار المرء وحده في حرب متعددة الجبهات".

هو في واقع الأمر لا يكره والدته وشقيقاته الثلاث، بل يحبّ عمّته مثل امرأة "تراعي التقاليد"، وتحفظ ذكرى الزوج الراحل، وفوق هذا وذاك: "لا تضع ملابسها الداخلية في مكان يمكن أن تطاله عين الغرباء". أخيراً، أتمَّ تصفيف شعره الماعزي، وليته لم يفعل.

كان يرخي أذنيه باحثاً في الخارج عن أصوات الجوقة النسائية التي توقفت منذ مدة، عندما أخذ يمرر إصبعه في شرود على حواف "تسريحة الخشب العتيقة"، وهو يتطلع في أنحاء الحجرة بحزن ووجوم غامرين، لكأنه يفتقد نصيرا مهما مثل "وجود الأب".

ما إن خرج من غمار تأمّلاته الحزينة تلك، وقد أدرك عمق وحدته في العالم، حتى كادت أن تسقطه أرضاً فوهة لباس أزرق واسعة الغور.

ذلك "اللعين، اللعين اللعين"، بينما أخذ هواء خفيف يؤرجحه على مقبض إحدى النوافذ الخشبية المشرعة ذات اليمين وذات اليسار، أخذ يُبادل وميضَ الغضب الصادر من داخل عينيه الضيقتين بنظرة سافرة لا مبالية استقرت عند شاربه الوليد على وجه الخصوص، لكأنه يتساءل مثل سابقيه الأسود والأحمر القاني، قائلاً:

"هل لي بدرس آخر في مبادئ الحشمة أيها القائد"؟

كن مستغرقات في النوم أسفل نور الظهيرة الأبيض الكثيف المتدفق عبر ذات النوافذ الخشبية المشرعة، ساعة أن اقتحم الحجرة عليهن مثل إعصار، مقتلعاً شجر الأحلام الذي نما في أعقاب حفل العرس الليلي الساهر، وما تبقى من طمأنينة الأسرّة الثلاثة كانت ركائزه تتهاوى في قاع بئر من الفزع الأخرس الذي ارتسم بدرجات متفاوتة على وجوههن الجميلة المجهدة جراء السهر والتي أخذت تتطلّع إليه من رقدتها الخامدة تلك في ذهول المحنة نفسها.

لم يستغرق الأمر سوى لحظات، حتى أدركن من هيجانه غير المبرر على الدوام مغزى "الدرس القديم الجديد"، دمعت عينا ذات الأزرق الغامق، وهي عادة تصاحب عندها كبت ضحكة لا سبيل إلى حبسها طويلاً، أما ذات الأسود، التي تلقت

منه لكمة قبل أيام، وكانت صغراهن، فقد ظلت لائذة بالصمت، وقد اعتدلت جالسة قبالة وقفته المتوعدة أمام "تسريحة الخشب العتيقة" نفسها بوجه خال تماماً من آثار النوم الهاربة فيما بدا بلا عودة، بينما دفع الغيظ ذات الأحمر القاني إلى أن تغرس أصابعها العشر في لحم الوسادة دون أن تسحب الفستان الذي انحسر أثناء النوم إلى أعلى فخذيها، حتىً!.

كان يتحدث إليهن بصوت مبحوح أغلب الوقت، مرسلاً إصبعه السبابة في وضع مستقيم تارة، ضارباً قبضته اليمنى على باطن يده اليسرى تارة أخرى، مشعلاً النار داخل عينيه الضيقتين تارة ثالثة، إلى أن شرع يتساءل مثل ثائر أعياه "إصلاح الخطأ بين الجماهير"، قائلا:

"وهذه عمّتكم.. السيدة المحتشمة الورعة.. يا لها من قدوة صالحة.. فمنذ أن استقرت معنا هنا في هذا البيت.. هل رأيتن أبداً كيف تحرص دائما على إخفاء مثل تلك الملابس"؟

هكذا كمن حبته الأقدار قدراً من التجارب والحكمة في وقت وجيز أنهى خطبته اللاهبة، ثم همّ بالخروج مغادرا غرفة الشقيقات الثلاث، وقد بدا له أنه قد أدى واجبه على أكمل وجه، وإن لم يبرح الشعور القديم بالامتعاض صفحة وجهه بعد.

عندها، عندها فقط، لاحقه صوت ذات الأحمر القاني، ناشباً لسانه في عنقه المحنية إلى الأمام، قائلاً بكل تلك "الوقاحة": "ذلك لأن عمتي لا ترتدي الملابس الداخلية أصلاً".

تداعيات في بلاد بعيدة

"كما يشاع لم يكن للكلب غرة بيضاء على جبينه".

هكذا أخذت تستعيد ذات نهار قائظ بعيد تفاصيل "فضيحة أحمد حسن"، التي حدثت أيام مراهقته، ولم يتبق من حلاوة حكيها، على آذان معظم الناس وألسنتهم، سوى ذلك "الاسم"، الذي لازمه كعلامة بعد مقاومة قصيرة ومحدودة من جانبه إلى يومنا هذا:

"مُسيلمة الكذاب".

كانت الشمس تشتعل في منتصف سماء جرداء. شجرتا النيم تقبعان على جانبيَ مدخل الدار. تطلان على الشارع المقفر في صمت. لكأنهما سقطتا على حين غرة من لوحة رسّام أراد في لحظة إلهام جنونية تصوير الحياة كبستان خال من الهواء. وثمة ديك ملتاع حزين يرتفع صوته بوهن وفتور من مكان ما في الجوار. أما أرض الفناء الترابية الكابية فقد كانت تلتمع بعشرات الشظايا الزجاجية الصغيرة المتناثرة هنا وهناك. "إنه الصيف"، علا صوت إحداهن لحظة صمت وهي تتأمّل العالم المحترق خلف النافذتين، وبينما الحوائط تختزن الصّهد لتنفثه بعد ساعات رئة المساء المعتمة، ما كان بوسع أكثر الناس قدرة على التوقع أن يتنبأ بما آل إليه مجلسهن من

حوادث تبدو لي الآن مثل نغمة حزينة من أنين القوافل البشرية السائرة عبر القرون بلا توقف أو عزاء.

آنذاك كن مجتمعات داخل إحدى غرف البيت الداخلية. أمّي التي ستُعرف لاحقا بإسم "**مبعوثة العناية القدرية العليا لبعث حضارة المدينة في غمضة عين**" وأختاي الكبريان وجارتنا فاطمة وعانس على مشارف الخمسين تدعى "**وكالة رويتر المحلية**".

كن صامتات أغلب الوقت.

والحق أقول لكم، كانت هي من النوع الذي يشد إليه انتباه سامعيه بخيوط متينة ومحكمة من المتعة والسكون وإثارة الأشواق الدفينة بل وحتى الأسى أحيانا. تعرف جيّداً متى تصمت؟، كيف تستعين بأصابعها النحيلة أو الرقيقة أثناء الكلام؟، كيف تبدأ الأنس وتنهيه؟ بل وأين تلقي بالمغزى الكامن بعيدا داخل الحكاية؟، وأية حكاية؟

لكأني أراها الآن.

كسنابل القمح أواخر فصل الشتاء، ذاك لونها. ممشوقة القوام. ذات شعر ناعم فاحم ينسدل إلى أعلى ردفيها بقليل. خصرها ضامر. لها إبتسامة لا تدري إن كانت تثير في داخلك الذعر أوالمسرة؟ فمها يتخذ في مناسبات عديدة هيئات الوَدْع حين تلقيه على الرمل يد العرّافة. لا تكاد عيناها الواسعتان السوداوان تستقران طويلاً على حال واحدة. ولا أحد من الناس

في تلك المدينة الواقعة عند ضفاف النيل الأبيض يعلم على وجه الدقة متى وأين وكيف محا ذلك الاسم اسمها القديم؟

إنها "وكالة رويتر المحلية".

مازلت حتى الآن أتذكر توهج السعادة على وجهها حين يحدث في المدينة أمر ذو بال. أجل، أتذكر طريقتها الفريدة تلك في الكلام. كما لو أن صوتها فرشاة، تنهل بحذق من ألوان خفيّة، تضرب على لوح لا وجود له ببراعة ودِربة، راسمة كل تلك العوالم من المتعة والشجون والعذابات مرة. أجل، أتذكر ذلك. أتذكره بشيء من حنين طاغ إلى أحداث تلك الأيام "الفائتة". أتذكر حتى ما يُحكى عن موت أبويها الثريين في حادث غرق بعيد وقع قبل ولادتي بعام. كل ذلك وغيره، مازلت أتذكره بوضوح شديد. لكنّ أكثر ما ظل يشيع الأسى في قلبي من كل هذه الذكريات ولا أدري لماذا هو علمي أن "وكالة رويتر المحلية" قد ماتت في منتصف العقد السادس من عمرها من دون أن ينعم بستان جمالها الذابل لحظة بالماء المتدفق عبر قناة أحد أولئك الرجال؟

على غير العادة، خرج الحاج محمود مبكِّراً، بعد أن رأى في المنام كلباً أسود يضع في فمه غليوناً يتصاعد منه دخان رمادي. جلس داخل الفرندة علىَ طرف السرير متصالب الساقين ملفوفا داخل العتمة واضعاً رأسه بين كفيه في وجوم. وقد أخذ يُقلب في ذاكرته ما قاله ابن سيرين عن الأحلام، بينما عيناه ترنوان إلى شيء أبعد من العتمة والفناء وذكرى زوجته

الراحلة وبناته الثلاث اللائى تزوجن تباعا وغادرنه مع أزواجهن إلى مدن بعيدة.

أخيراً طفق يتوضأ بهدوء وتمهل وقلبه يحدثه فيما يشبه الهمهمة بأن كارثة ما في طريقها لتقويض سلام تلك المدينة الوادعة مرة واحدة وإلى الأبد. وقد كان.

"اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه". تمتم الحاج محمود وهو يلقي بالأمر كله على كاهل الخالق ونهض. لم يدم انتظاره طويلا. ما إن فتح باب الحوش الخشبي العتيق وسار في الشارع خطوات قليلة في طريقه لرفع آذان الفجر، حتى تجمد الدم في عروقه وتوقفت أنفاسه دفعة واحدة، إذ انشقت الأرض على بعد خطوة واحدة منه عن كلب أسود، وقف على قائمتيه الخلفيتين لحظات، ثم تلاعب بعينين متقدتين كعيني عاشق قديم لا ينقصه الحياء، قبل أن يمرق بذيل معقوف إلى أعلى في الاتجاه المعاكس كبرق. حين التفت لم يكن ثمة شيء سوى ذلك السكون المخيم على امتداد الشارع الطويل المترب. "اللهم اجعله خيراً"، بالكاد خرج صوته. ومع ذلك، سرعان ما هدأ من روعه وأخذ يغذي الخطى مواصلا السير كمؤمن حقيقي.

كانت تقترب من الثالثة بعد منتصف الليل، ما زال في الوقت متسع للتأمّل في مخلوقات الله والسير بتؤدة، المصابيح مطفأة داخل المنازل، أعمدة الكهرباء الأسمنتية المتعاقبة

أعماها عبث الصبية النهاري، أما القمر في تمامه فكان يطل من حين لآخر من خلل السحب السوداء السارية ببطء صوب الشمال، يختفي فتعتم الأشياء آخذة من جديد أشكالها المخيفة الغامضة، "الناس غافلون عن غايتهم، "الآيات بيِّنات" وواضحة، لكن الحكمة لا يبصرها المبصرون، وتلك لعمري ساعة يذكر فيها اسم الله كثيراً"، واصل الحاج محمود الهمس، مبدداً وحشة الطريق ومحتسبا بقايا الرؤيا المشئومة في خشوع، فاركاً بين يديه مسبحة الصندل الحجازية الدقيقة من آن لآن، ومغالباً تلك الدموع الحارقة التي ظلت تملأ عينيه كلما استشعر في أعماقه عظمة الخالق سبحانه وتعالى. فجأة انتبه إلى حركة مريبة أخذت تتناهى إليه لاهثة من وسط كومة الأوساخ المتراكمة أسفل سور المدرسة الأميرية الحجري القصير.

في البداية، لم يخالجه الشك لحظة واحدة أن الشياطين تتناسل داخل تلك "الخرابة والعياذ بالله" في غفلة تامة من عين الإنسان "الذي يمتلك مفاتيح السر منذ أن حمل الأمانة". ثم، بيقين تام ومثلما حدث قبل دقائق معدودة مع الكلب الأسود، توقف غير بعيد من تلك "الخرابة" وقال بيقين العابد الصادق نفسه: "بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم"، ولكن "أي شيطان لا يفر إذا ما أطلق عليه اسم الجلالة"، تساءل الحاج محمود وبدأ القلق القديم يساوره، إذ لم يتغير شيء مما يحدث، وأكثر من ذلك ظل نفس اللهاث يتفاقم شيئاً بعد شيء. "و لو أنه في تلك الساعة لم يكن

المؤذن الرسمي للمسجد الكبير لأطلق العنان لساقيه لا يلوي وراءه على شيء".

شبحان غريبان من خيال العتمة، يلتحمان في وضع أكثر غرابة، لكأن القاذورات تحتهما سجادة حريرية يتمرغ على نعومتها جسدا عاشقين التقيا بنهم ولهفة بعد طول غياب لم ينقطع خلاله نداء الشوق والوجد وظمأ رغبة لا رواء له.

كان القمر محتجباً آنئذ وراء سحابة سوداء كثيفة، العرق يتصبب من جبينه وصدغيه مبللاً لحيته البيضاء المستديرة وقلبه يرتجف داخل صدره كأنف فأر حاصره قط في ركن ضيق، كان قد استنفد في تلك الدقيقة كل ما في جُعبته من آيات وأدعية وأحاديث مأثورة "وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ". لا شيء تغير، البتة.

ما إن قرر أخيراً مغادرة المكان "بأسرع قدم لديه"، وقد أدرك برعب مدى ضعف إيمانه "الذي لم يصمد طويلاً" إزاء "هذا البلاء الرباني اليسير"، حتى جاءه الغيث من السماء "رأسا"، حيث اندلق نور القمر المنير كاشفاً له في ثانية معالم الفصول الدراسية وتضاريس السور الحجري القصير، بل و... أدق تفاصيل الشبحين اللذين كادا منذ دقيقة واحدة فقط أن يقلبا نظام العالم القائم في ذهنه منذ الولادة رأساً على عقب.

رويداً رويداً، أخذ يفيق من "ذهوله العظيم". وبدأ يتنفس الصعداء. وقد وضح له الأمر "الآن" جلياً. لبث في مكانه ساكناً

مسافة. يلفه الغيظ والغضب والحنق والحيرة والوجوم. وأكثر من ذلك: تخاذل إيمانه في اللحظة الأخيرة!

أخيراً، وقد هدأ روعه تماما، عقد عزمه فتقدم وسط أكوام الأوساخ المتلاحمة أو تكاد، شاقاً طريقه مثل ثعلب يقترب من حظيرة الحملان بخفة وحذر.

كان بينه وبين الشبحين خطوة واحدة، حين تبين له وجه أحمد حسن على نحو شديد الوضوح. "ذلك الفاجر"، قالت "وكالة رويتر المحلية"، ثم رمت نظرة نافذة متناوبة على وجهي أختيَّ جعلت الكبرى تتأمّل أظافرها المطلية حديثاً بينما تغير وجه أمّي قليلاً حالما رأت الأصغر وهي تبادل "وكالة رويتر المحلية" نظرة الند للند بل صعدت إلى حصان جرأتها المعهودة لحظة أن مدت عنقها إلى الأمام وقد خيل لي أنها قد تتحول في أية لحظة إلى أذن فيل ضخمة لا محالة. أما جارتنا فاطمة فقد كانت لا تزال هادئة تبتسم بعينيها الجميلتين دون أن تنفك يداها لحظة من تهوية وجهها بكتاب:

"ألف طريقة وطريقة لصناعة الحلوى".

كان نصفه الأسفل عارياً إلا من سرواله الساقط عند كاحليه، جلبابه يتكوم ما بين الصدر والعنق، عيناه شاخصتان في البعيد، بينما ينغرس فكه في الظهر المائل لحمارة أمينة الفرّاشة التي أغمضت عينيها نصف راقدة وأرخت أذنيها الكبيرتين وراحت تمضغ شيئاً ما ببطء وتمهل غريبين أثارا على ضوء القمر المنير وزادا من غضب الحاج محمود الذي

سبق له وأن وطأ أثناء سيره الحذر داخل كومة الأوساخ المتراكمة على "جثة فأر متفسخة"، وبدا وكأن الحمارة قد تعودت على مثل هذه الممارسة الاستثنائية منذ زمان بعيد.

كانت المنازل الساجية والموغلة في سباتها العميق قبالة سور المدرسة الأميرية شهود عيان، أوصدت الشماتة والخوف والدهشة آذانها، فبدت غير عابئة بضربات المسبحة المتساقطة على رأس أحمد حسن الذي انتزع نفسه وجذب السروال وأسدل الجلباب في ثانية متقهقراً نحو السور بما تبقى له من عقل. لكأن الحمارة التي لا تزال محافظة على هدوئها، لم تسمع بدورها كل ذلك النداء الخافت المستغيث الحار: "الستر.. الستر الستر.. يا مولانا.. وربِّ الكعبة الشريفة.. لم أفعل هذا الفجور بيدي.. ولم أرتكب.. يا مولانا.. هذا المنكر الشنيع بمزاجي.. ويشهد الله.. أني كنت في عز نومي.. عندما خطفني الشيطانِ من سريري خطفا.. ثم.. ثم... ثم أحضرني إلى هنا محمولاً على قرنه السابع". حالما أنهى أحمد حسن بشق الأنفس مرافعته الدامعة المنكسرة حدَّ اللوعة والرثاء، زفرتْ الحمارة لأمر ما، وبدا أن الحاج، الذي أنساه هول ما رأى أن يؤذن لصلاة الفجر في ذلك اليوم، قد وجد في داخل كومة الأوساخ متسعاً للحوار، فأخذ يتفكر مليئا في وجه المراهق الملتصق بظهره إلى سور المدرسة الأميرية الحجري القصير بينما أخذ صوت الديكة ينطلق من أكثر من مكان قائلاً: "لماذا إذن يا ابن الناظر التربوي الرشيد نفسه! لم يكن قرنه الرابع؟ أو حتى الخامس؟ لماذا قرنه السابع تحديداً؟ وإذا

كان للشيطان الرجيم كما نعلم مائة رأس بالتمام والكمال، فإلى أي الرءوس كان ينتمي القرن الذي حملك يا فاسق إلى حمارة أمينة الفرّاشة؟، أيها الفاجر، لماذا تصمت هكذا؟ ها أنت إذن تكذب أيضاً، خذ هذه، وقسما بالله العظيم ثلاثاً، لأنت سيد الفحش كله، لا لا، أنت الشيطان نفسه وقد اتخذ هيئة إنسان داعر، لا، بل ... أنت مُسيلمة الكذاب نفسه".

كان في إمكان هذا الحوار أن يستمر بين كر وفر من غير انقطاع إلى ما بعد بزوغ الشمس، لولا أن فطن ابن الناظر الذي دأب على ركل عجيزة الحمارة بقدمه خفية من آن لآن إلى مراجعة موقفه الحرج، فأطلق العنان لساقيه الخفيفتين كساقي جواد، تاركاً وراءه الحاج محمود وسط نهيق الحمارة الذي علا على حين غرة، ثم.. وبعد أن انغمسن في الصمت لدقائق، مضت "وكالة رويتر المحلية" بالحكاية القديمة نفسها باعثة نسمة أخرى من الضحك في خلايا ذلك النهار الذي بدا لغيظه بلا نهاية قائلة:

"يا بنات!.. سعيدة.. سعيدة حقا.. مَن تتزوج بمُسيلمة الكذاب.. فلو طلبني أنا شخصيا للزواج لوضعت ثوبي بين أسناني وركضت نحوه بلا تردد... لا تتضاحكن هكذا... ها ها ها.. لابد أن مَن يفعل ذلك لديه مثل ما لدى الحمار"!

كانت ذرات الغبار الدقيقة تمرح سابحة بتراخ على امتداد شريط الشمس العريض المتساقط عبر إحدى النافذتين، كن يرقبن ذلك في وقت واحد دونما سابق اتفاق راسمات على

وجوههن بدرجات متفاوتة ذلك التعبير الأنثوي الحالم في حياة تكاد أن تخلو من متاعب، وكان ثمة سرب من الذباب يتنقل في كسل بين أكواب الشاي الفارغة أعلى طبلية الخشب وأطرافهن شبه العارية في لهيب ذلك النهار، وبدا بالفعل أن مثل تلك الحكايات القديمة لم يعد يحمل جديداً، حين بدأن في الاستغفار والتثاؤب تباعاً. عندئذ، ألقت "وكالة رويتر المحلية" بصوت ناعس لا يثير ريبة ما حرَّك بِركة الأنس الراكدة منذ فترة قائلة:

"يا بنات، بحق الله، مَن هو مطربكن المفضل"؟

لو علمن ما يتبع ذلك السؤال، لاعتصمن بحبل الصمت، لما ألقت السائلة ما ألقت، بل لتبدلت مصائر إلى غير ما ذهبت إليه أقدام أصحابها طواعية من شقاء، ولست أدري حقاً يا أصدقائي إن كان ذلك ما يدعونه "الفخ"، أم سعي الضحية إلى حتفها راضية؟

تحولت الأنظار نحو فاطمة آن استقر شريط الشمس المنسحب عند قاعدة النافذة. كانت لا تزال تقلب في صفحات ذلك الكتاب الذي ظلت تحمله معها لأمر أو لآخر كلما أتت لزيارتنا في تلك الآونة. وقد ارتسم على طرف فمها الأيمن طيف ابتسامة ساخر زاد من ألق عينيها الجميلتين اللتين رفعتهما فجأة نحو السقف، ثم ما لبثت وأن عادت ماسحة وجوههن القلقة المترقبة بنفاد صبر وحيرة بنظرة نصف مروحية بطيئة وامضة، قبل أن تنكفيء مرة أخرى على كتاب

"ألف طريقة وطريقة لصناعة الحلوى" مؤججة بذلك نار الانتظار بلا طائل، وكن قد فطن إلى صمتها الملغز الممتد فيما بدا بلا نهاية حين فرغن من إجاباتهن المتدافعة وشرعن في التطلع إليها متوقعات بنفاد الصبر نفسه أن تُلقي إليهن بإسم مطرب آخر، ربما لتكتمل دائرة المقارنة الأنثوية القاتلة، ربما ليأخذ الحديث بعدها مجرى مختلفاً، أو ربما ليفتحن باباً آخر قد يُفضي إلى خارج أتون الحرارة الذي لا يُحتمل.

كانت أمي تتفرس وقتها في وجه فاطمة محاولة جهدها كله أن تحذر ما يدور في خلد جارتها وفمها فاغر وعيناها مليئتان بالعجز والخوف والفزع من تحقق هواجس غامضة بعيدة للمرة الثانية، وقد تراقصت في ذاكرتها مرة واحدة عفاريت هالة المجد الكاذبة التي أحاطت برفيقة طفولتها وصباها في زمان سابق لكم ودت أن يتلاشى من ذاكرتها بلا رحمة ودونما رجعة. حين رفعت فاطمة رأسها أخيراً بدا في اللحظة عينها ربما لكثافة صمتها وكأن لا وجود لتلك الآنسة المدعوة "وكالة رويتر المحلية"، البتة!

كانت تلقي وقتها خطاب "طلائع المدينة الثورية". وكانت في نحو الثالثة عشرة من عمرها، حين مال الرئيس السابق "شخصيا" برأسه أسفل الخيمة المنصوبة خلال زيارته الأولى واليتيمة إلى المدينة نحو وزير "الموارد البشرية" الجالس آنذاك إلى يمينه كمن يتأهب لدخول الحمّام في أية لحظة. وما إن همس الرئيس في أذن وزيره، حتى رحلت علامات الملل عن

وجهه تماما، وشرع ينصت كوزير "عزب" لخطاب الحسناء اليافعة، حالماً تارة ومُبدياً إعجابه عبر إيماءات عديدة تارة أخرى، وإن بدا في كثير من الأحيان وهو ينظر إلى الصبية وفق ذلك النحو كمزارع يمعن النظر في أرض بكر إذا ما عُهد بها للرعاية والسقاية ستنبت الكثير و"لا شك" من الثمار الطيبة. لتنطلق فور انقضاء "مهرجان الخطباء الأحمر" إشاعة قوية في المدينة يقال حسب شهود عيان تلك الواقعة إن مصدرها المحافظ الأسبق نفسه تفيد أن الرئيس قد "قرر في لحظة إلهام رئاسي رصين تزويج فاطمة" بعد عامين على "أكثر تقدير" لوزيره "الشاب الأعزب الوسيم".

الجميع أخذ يتذكر كيف ازدحم بيت والديها إثر ذلك بأرباب المطالب وأصحاب الالتماسات الخاصة. كان من بينهم حتى مَن تمنّى مشاركة الرئيس نفسه على "طعامه الأكثر ثورية في العالم ولا بد". لقد تقاطرت عليها وقتها من أصقاع المدينة المختلفة هدايا ثمينة مجهولة المصدر أحيانا قال بعض رُسُلِها إنها مجرد تعبير بسيط عن حب المدينة وتقديرها الخاص لابنتها "الواعدة". كان الأمر من الجدية بمكان أن قام المحافظ وقتذاك بتعيين حراسة خاصة ظلت ترافقها أينما حلت، وكان ذلك كله يقذف بأترابها من أمثال أمّي في هوة سحيقة من ظلام الغيظ أو الغيرة. والأكثر مرارة من رواسب تلك الأيام أن فاطمة توقفت بعدها حتى عن تحية أقرانها "ناهيك عن اللعب معهن". كانت ترد على مكائدهن "الصغيرة" بكلمات سلبت لبّ الكبار أنفسهم قائلة من داخل هالة السلطة المهيبة

"قل لهم إن فاطمة مشغولة الآن بمشكلات تخصّ الدولة شخصيا". ذلك ما كان من أمر الأمس. ولم يدر في ذهن أكثر الناس مقدرة على التخيل بعد ذلك أن ينتهي بها المطاف كزوجة لصلاح "بتاع الدكان الرجعي".

لقد وُئد حلم فاطمة حسب شهود عيان لحظة الانقلاب العسكري الذي أطاح بعالم الرئيس في ظرف أقل من عام من نهاية ذلك المهرجان. وإن لم تغادرها حتى الممات نزعة التميز والشعور بالتفوق برغم ضيق ذات اليد والوسائل. وكانت النتيجة أنها غدت متخمة بتطلعات نساء الطبقة الوسطى في تلك الأيام بدءاً من اقتناء الثلاجة "كولدير"، مروراً بالنظر إلى عامة الناس من "علوّ شاهق"، وانتهاء إلى مُناصرة جمعية "رائدات نهضة المرأة الحديثة".

هناك، قبالة أمي والآنسة "وكالة رويتر المحلية"، عند طرف السرير الموازي للحائط الخالي من النوافذ، وبينما فاطمة التي توسطت مجلسهن توشك أن تتكلم بالعبارة "ذات الدفع الرباعي الماحقة"، كانت أختي الأصغر قد تحولت بالفعل إلى أذن فيل ضخمة، وهي تعلن بظهرها المشدود وصدرها اليافع المندفع إلى الأمام عن حرصها الشديد على متابعة أمر لا ترغب في أن يفوتها منه شيء. لقد كانت ذات الشقيقة، التي سأراها بعد مرور نحو خمسين عاما، وهي تعظ مجموعات النساء في أحياء المدينة المختلفة، قائلة في ختام كل موعظة "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإكْرَامِ".

كانت أختي الكبرى القابعة عند الطرف الآخر تجاهد في تلك اللحظة ما أمكن لطرد ذبابة خضراء لم تنفك طوال تلك الدقائق من الطنين حول رأسها والسير على صفحة وجهها كلما سكنت. "مطربي المفضل هو الموسيقار عثمان حسين"، قالت فاطمة بفخامة، وتهللت إثر ذلك لسبب يعلمنه جيدا أسارير "وكالة رويتر المحلية"، في حين هبط على إناث الأسرة صمت ثقيل قاتل أمكن خلاله سماع صوت دبيب أقدام نظرات الحسد الخافتة.

ما إن عادت أمّي إلى رشدها قليلا، حتى أخذت تفكر في كلمة "موسيقار"، ككلمة لغرابتها بدت لها للوهلة الأولى عصيّة على النطق تماما، لكنَّ صوت الجارة هوى بغتة من شاهق، مزعزعاً بقسوة هذه المرة يقين الإجابات السابقة، كاشفاً في الوقت نفسه عن سعة إطلاعها "الدقيق" على ما يستجد من أحداث داخل ما كان يحلو لها أن تدعوه في كثير من الأحيان وقليل من الرأفة: "عاصمة دولة جمهورية السودان الديمقراطية"، قائلاً:

"أحبه لأنه مطرب طلاب جامعة الخرطوم المفضل".

كان الناس في تلك المدينة ينظرون إلى هؤلاء بوصفهم "ملائكة علوم الدنيا"، على حد تعبير ناظر المدرسة الأميرية، الذي تغيرت معاملته تجاه أمينة الفرّاشة بعد أن التحق ابن شقيقتها بكلية التربية من نفس الجامعة، متناسياً بذلك وصمة العار التي أدركت ابنه "بسبب حمارتها" بالذات، وإن لم

يتزحزح قيد أنملة "نكاية في الحاج محمود" كما يروج البعض عن اعتقاده الجازم في أن ما حدث "كان وراءه قرن الشيطان السابع ولابد".

الحق، كان لوجود أسماء غريبة، مثل "هارفارد" و"السوربون" و"موسكو" و"أكسفورد"، على "يافطات" معلقة أعلى مداخل عيادات الأطباء الخارجية، سبب كاف لزعزعة ثقة المريض وإثارة مخاوفه الأبدية، لقدا بدا الأمر في أحيان كثيرة كما لو أن الناس يرون خلف تلك الأسماء الغريبة حانوتيا لا بد وأنه سيعمل عاجلا أو آجلاً على توصيلهم إلى دار الفناء في أقرب فرصة تلوح لناظريه. لقد كان حدث دخول طالب في تلك الأيام إلى "جامعة الخرطوم" أمر يعد بمثابة "الضمان العقاري" لأن يبدأ أهله في الاستدانة من أقرب بنك طوال سنوات دراسته الجامعية.

تكهرب الجو داخل الحجرة تماماً. لا نأمة هناك. لقد كان من العسير على أمّي أن تمضي إلى نهاية الشوط وهي تخفي استياءها من اختيار أختيّ لمطربين "شعبيين" على الرغم من كونهما في "مقام" ابنة فاطمة الوحيدة "أمل".

لكأن ذلك حدث في الأمس القريب.

تثاءبت "وكالة رويتر المحلية". وبدأت فاطمة تتابع قراءة شيء ما من كتاب "ألف طريقة وطريقة لصناعة الحلوى". وكأنها لم تدرك قوة الزلزال التي أحدثتها كلماتها تلك في نفوس "إناث الأسرة" اللائى أخذن ينظرن في اتجاهات الصمت

المختلفة كطائر ذبيح ذي ست أعين وثلاث رؤوس وهم واحد. ثم ما لبث صوت "الوكالة" وفاطمة أن تناهى في وقت واحد إلى آذان أمّي التي وضعت رأسها منذ دقيقة بين كفيها وراحت تنظر في شرود إلى ما فوق طبلية الخشب القصيرة طالبا الإذن بالانصراف. هنا رمقتْ أمّي أختيَّ بنظرة معاتبة. ثم نهضت بتلك الابتسامة الشائخة لامرأة في منتصف الثلاثين. وشيعتهما وهي تودعهما إلى باب الحوش ومن هناك عادت بخطى أثقلها الصمت و"نذر الكارثة الدانية". وقد بدا ذهنها في تلك اللحظة منصرفا إلى مكان بعيد لا يعلم إلا الله متى تعود منه؟.

ولم تظفر أختاي ولو بكلمة واحدة منها طوال اليومين اللذين أعقبا ذلك المجلس. لقد بدا الأمر برمته خارج حدود الاحتمال أو التصور. أجل، ثمة شيء حزين يلوح في "الأفق القريب".

قبل مغادرتها المجلس بوجه طافح فيما بدا لعيني أمّي بالغنائم و"الأسرار والأخبار الطازجة المثيرة"، أثنت "وكالة رويتر المحلية" بدهاء "ناقلة أخبار عملاقة" على ما أسمته "ذكاء فاطمة جارتكم الرهيب"، مؤكدة "في الحقيقة" أن "مطربها المفضل قد خطف بالحق قلوب بنات العاصمة الراقيات"، والجارة فاطمة لم تِصدق وقتها خبراً. وضعتْ رِجلاً على رِجل، ورويداً رويداً، شرعت في الانتفاخ مثل قاموس خال

تماما من كلمة "تواضع"، زارعة بذلك البذور الأولى لما سيقلب هدوء المدينة الصغيرة الوادعة رأسا على عقب. وقد كان.

كانت الأسرة قد استقرت في بيت جَديّ لأمّي المغلق منذ ثلاث سنوات على وجه التقريب. آنذاك قرر والداي هذه الخطوة، بعد أن تقدمت أختاي في مدارج التعليم قليلا وصار لزاماً عليهما أن يُلحقا شقيقتيَّ بالمدارس "الثانوية العامة" في المدينة، على أن يبتعث أبي كما ظلت أمي تردد في بعض الأمسيات أمام عدد من الجارات ضاحكة "حياة عزوبيته" كمفتش زراعي من "طبقة الدرجة الثالثة الوظيفية" كما درجت على القول كذلك "تضحية لمستقبل الأنجال المشرق".

على أية حال، خلال إجازاته السنوية، وحتى عبر زياراته القصيرة المتباعدة لنا، لم يكن أبي يهتم في كثير أو قليل بالمدينة و"مغرياتها المحدودة"، اللهم إلا اهتمامه ذاك المتزايد بشيء واحد مثير تماما للحيرة والدهشة والتأمّل:

"التلفزيون العجيب".

كان يجلس قبالته منصبا عليه بكلياته، وقد أخذ عليه مجامع نفسه، منذ بدء الإرسال في تمام السادسة مساء، وحتى موعد نهاية "بثه" قبل منتصف الليل بساعة، وإن لم يتوصل إلا بعد مرور وقت طويل وعلى نحو ضبابي إلى وجود ذلك المنطق الذي اتخذ بواسطته هيئة "الصندوق السحري". كان

يقول "للأسف، لا يوجد لدينا في المدينة سوى تلفزيونات بعدد أصابع الإنسان الواحد، ولو علم الناس ما في التلفزيون من متعة، لقاتل بعضهم البعض عليه بالفوءوس والحراب، هؤلاء الأوغاد الجهلة لا متنفس لهم غير أفخاذ النساء، مُتع الحياة كثيرة في هذا العالم". ولحظة أن يستبد به الحماس أكثر، كان يلجأ إلى نوع من "الهرطقة الدينية"، على حد تعبير الحاج محمود، قائلا "لا بد أن الله سيُدخل مخترع التلفزيون هذا إلى جنة عرضها السماوات والأرض". ما كان يدهشه حقا، ليس فقط زرع بعض الناس داخله، بل "حتى أنهم قاموا بحشر مدائن هائلة ومسيرات مليونية ومعارك تمت في بلاد ما وراء البحار في حدود شاشته الفضية الصغيرة، ويا للعجب"!.

كان ذلك كله يثير غيظ أمّي المنفتحة بطبعها على العالم المحسوس. وكثيرة هي تلك الألقاب والأسماء التي منحتها له "وكالة رويتر المحلية" في هذا الخصوص. وهي ذات الألقاب والأسماء التي تم محوها لاحقا بلقب آخر ظل ملتصقا به حتى الممات:

"أبو العطور الحضارية الراقية بلا رحمة سماويّة"!.

ما أحزن أمي، ما أقضّ مضجعها، ما أحال نهارها إلى ليل حالك وجعلها تختض من الغيظ، بل ودفعها إلى التفكير عميقاً طوال تلك الأيام الثلاثة التي أعقبت ذلك المجلس في وسيلة مثلى للانتقام من جارتها "المُدعية.. فاطمة.. زوجة صلاح بتاع الدكان الرجعي.. صاحب العينين الضيقتين اللتين

تشبهان فرج السحلية"؛ أن ما اعتبرته "فضيحة حضارية" لا تليق أبداً بسمعة "عائلة كريمة" يُعتبر أحد مؤسسيها أول من بنى بيتاً من "الطوب الأحمر" في المدينة قد وقع تحت سمع وبصر "وكالة رويتر المحلية"، وهذا أمر "لا يُبشر بخير على الإطلاق بالنسبة لمستقبل زواج البنات في مدينة بها عدد لا يستهان به من طلاب جامعة الخرطوم الأذكياء".

أملَتْ أمّي ذلك في رسالة عاجلة بعثت بها إلى أبي، معربة خلالها عن "عميق أسفي الشديد جداً لهبوط الذوق الحضاري لأفراد أسرتنا نتيجة النزوح معك يا سيادة المفتش الزراعي الثالث بين النجوع والكفور والقرى النائية طبعاً"، كاشفة بعبارات غامضة وكأنها تخشى من وقوع الرسالة في يد "عدو لدود" عن "خططي السرية الدائمة لتدارك ما يمكن إدراكه"، لابد أن في أعماقها نزعة شكسبيرية ظلت حبيسة لعقود خلت فأفرج عنها مسار "تلك الفضيحة الحضارية الكبرى" حين ختمت رسالتها بكلمات جدٌّ حاسمة وقاطعة مازالت أحرفها المضغوطة على الورق بحرص وعناية كبيرين تتراقص أمام عينيّ حتى الآن: "لقد أصبحت الحكاية الآن، في هذه المدينة، يا سيادة المفتش الزراعي الثالث، مسألة حياة أو موت".

في سعيها المحموم لتغيير ملامح الصورة العائلية مرة واحدة وإلى الأبد، لم تكتف أمّي بتوبيخ أختيّ على سوء اختيارهن "بفصاحة" لمطربين "شعبيين" مثل "القادمات من

الريف حديثاً"، بل شرعت لاحقا هي نفسها في إعلان رأيها "الشخصي الخاص جداً جداً جداً"، زاعمة أن مطربها المفضل لم يكن "في يوم من الأيام" سوى "مغني الروك إن رول" الأمريكي الشهير "الفيس بريسلي"، وكان ذلك وحده سببا كافيا لتدمير سمعة فاطمة كمثقفة "إقليمية" مرة وإلى "الأبد"، على الرغم من أن فاطمة ظلت تؤكد في دعاية مضادة، وهي تقلل من شأن المعارف الجديدة لغريمتها، أن أمّي "محدثة النعمة الحضارية" التي هبطت عليها في عمر متأخر "بين يوم وليلة" لا تستطيع التحدث بطلاقة إلا في أوساط جمهور "أغلبه من الأميّات، اللائى، وا... أسفاه، لا يعرفن حتى ذلك الفرق الواضح... ما بين البوظة التركية والآيس كريم الألماني".

بعد طول قطيعة، وصلت خلالها العلاقة بين الجارتين إلى طريق اللاعودة، قبلت فاطمة ضحى ذلك اليوم دعوة أمي لحضور حفل عيد ميلاد أختي الكبرى التاسع عشر، حيث كان في انتظارها وهي تفتح باب الحوش الخارجي لبيتها "في شرود تلك الأيام" مفاجأة أن تمحو غريمتها "التاريخية" ما جرى هكذا، بكل بساطة، و"يا... للجرأة"!.

أجلستْ فاطمة وقتها أمّي داخل الفرندة، إلى يسار الثلاجة "كولدير"، وعلى ذات المقعد الذي سيشهد المأساة، ثم وقفت أمامها إلى اليسار قليلاً، تماماً مثلما ستقف قبالته عند بداية تلك المأساة، قبل أن تحضر مقعداً لها هي، وتجلس غير بعيد مترقبة ومتطلعة إلى أمّي في برود قاتل.

امتصت أمّي كل ذلك، وهي تستعيد من ذهنها مقاطع كاملة من كتاب: " فنون حرب المجتمع". وحين لم تحرّك فاطمة ساكناً من آداب الضيافة حتى تلك اللحظة، بل ذهبت إلى مدى أبعد في معاودة النظر إلي أمّي من أعلى إلى أسفل و"بالعكس"، تيقنت أمّي لحظتها أن "العدو" وفق تعاليم الكتاب ما ينبغي له أن يفرض على المرء "مكان وزمان المعركة ونوعية السلاح". هكذا ابتسمت أمّي وهي تكسر حدة الصمت المميت قائلة بلهجة مَن أدركه ولع الخبث على كبر: "والبنت طبعاً قطعت دراستها في الجامعة، جامعة الخرطوم طبعاً، ثم جاءت لتحتفل بيننا، ومن العيب طبعاً أن ترانا نحن الكبار مرة أخرى هكذا، ويعلم الله وحده كم تدين لك (يا فاطمة) بالمحبة والفضل في قلبها".

ألانَ صوت أمّي الذي بدا لحظتها نابعاً من الأعماق وجه فاطمة الذي أعمى بصيرته فيما يبدو وقع الزيارة المباغتة التي حالت دونه وفهم لهجة أمي التي انطوت وراء ظاهرها المتسامح على ما هو أسوأ. بدأ وجه فاطمة الذي ظل محافظاً على قسوته لفترة، يلين أكثر فأكثر، حيث لاح طيف الإبتسامة الساخرة التي يبدو أنها وُلِدَت معها على طرف فمها الأيمن أولاً، ثم وفي لحظة واحدة نهضتا وتعانقتا وذابتا معا داخل الفرندة كجارتين جمعت بينهما برغم رواسب الماضي التي لا تنسى ذكريات طفولة بعيدة، وقد ألقتا عبء ما حدث كله على كاهل "الشيطان الذي يفرق حتى بين المرء وزوجه". عيناي

تدمعان الآن. لقد كان ذلك العناق الأخير لهما كجارتين قديمتين في هذه الحياة.

"وكالة رويتر المحلية"، أشاعت أن فاطمة أعلنت في نفسها حينذاك عن "قبولي للتحدي" وأنها لا تخشى على الإطلاق من الدخول في ما أسمته "مواجهة حضارية فاصلة"، مؤكدة أن جارتها "محدثة النعمة الحضارية" بهذه الدعوة "وا... أسفاه... تحفر قبرها بيديها". أمّي التي سبق لها وأن حضرت وقائع دورة تدريبية "سرية" عقدها حزب التقدم في دار تقع إلى الجوار من بيت المحافظ تمشيا مع حكمة أن "القرب الشديد يحجب" لم تعلق بشيء أمام "وكالة رويتر المحلية". فقط ابتسمت بلطف.

على أعتاب عيد الميلاد "المشهود"، رأى الحاج محمود في إحدى لحظات بوحه النادرة أن أمّي قد تعاملت وقتها مع "تحديات جارتها السافرة" من باب "فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ". وقال لسبب ما "هذا الكتاب لا يغادر كبيرة، أو صغيرة، وإلا أحصاها".

كانت الأقاويل تترى من كل حدب وصوب إلى آذان الحاج محمود، الذي أخذت تغزو ذهنه وفي وقت وجيز "أشياء ما أنزل الله بها من سلطان"، والذي حسب بعض المقربين منه لم يعد يدهشه شيء "في دار الغرور بعد كبيرة مُسيلمة الكذاب" التي اعتبرها بمثابة "النذير المبكر" لما يحدث في "هذه الأيام".

وعلى الرغم من أن "مصادر خاصة" رفض تسميتها أكدت له أن فاطمة عانقت جارتها في بيتها فقط من باب "لا ينبح في فراشه إلا كلب"، بل وأضافت (نفس المصادر) لاحقاً أنها جاءت إلى الحفل مرتدية فستاناً ضيقاً من المخمل وافق اسم الموضة السائدة آنذاك باسم "دموع أم كلثوم الغنائية"، إلا أن الخبر الذي اتسم حقا ببعض الطرافة كان من نصيب "وكالة رويتر المحلية" نفسها، عندما أشارت إلى أن فاطمة أقبلت خلال ذلك المساء الحار بعينين واثقتين لم تنفكا قبل بدء فواصل الرقص من القول يمنة ويسرة: "يا أهل المدينة، انظروا، ها هي، فاطمة نفسها، انظروا إليها، ما أحلاها، حضارية جداً، تخطر في بيت غريمتها هكذا، هكذا هكذا".

"وكالة رويتر المحلية"، ما عادت تستقر في مكان واحد خلال تلك الأيام، التي سبقت وأعقبت في آن تفاصيل عيد الميلاد، حيث أكدت للمحافظ الذي جاء إلى الحفل متأخرا بعض الشيء والذي بدا لسبب ما حريصاً على دقة متابعة تطورات العلاقة بين الجارتين منذ أحداث ذلك المجلس البعيد الذي شهد وقائع "هزيمة الأسرة الحضارية" أن أمّي همست في أذن رئيسة تحرير مجلة "نهضة المرأة" المحلية الجالسة إلى جوارها قائلة بصوت تردد صداه بين جنبات السكون الشامل الذي ران لحظة دخول فاطمة فجأة:

"هذا الفستان لا يصلح لرقصة السامبا".

الحق، "الحق أقول لكم" يا أصدقائي إنها جاءت في ذلك المساء مرتدية "رموش شادية الناعسة"، لا "دموع أم كلثوم الغنائية"، فستان من الساتان الأسود اللامع أبان أدق تفاصيل جسدها اللدن المشدود حتى وهي تعبر عقدها الرابع بنحو العام، كان بلا أكمام، تلتف حوله خطوط فضية متباعدة ذات حواف مشرشرة. وبينما تراءى على كتفيها فرو ثعالب أصفر باهت تفوح منه رائحة "النفتالين"، بدت في ذهن الحاج محمود الغائب كما تخيل عدد من الخبثاء بالنيابة عنه مثل حورية خارجة للتو من كتاب "فضائل الجنة". كانت تخطر بخيلاء على أرض الفناء المرصوفة حديثاً بالأسمنت وكسار الآجر بحذاء أصفر ذي كعب عال أطلق عليه الحمّالون في الميناء النهري اسم "سفينة الشيطان"، على الرغم من أنه قد اتخذ في مجالس الصفوة اسماً آخر أكثر شاعرية ودلالاً:

"أتهادى نحو أحلام قلبك الوردية، حبيبي".

كانت أضواء قوية تتلألأ على هامة الفناء كتاج أميرة، نسائم واهنة منعشة لها رائحة التربة تراقص فروع شجرتي النيم في الخارج بنزق، السماء خالية وراء الهالة الفضية أو تكاد، لابد أنها أمطرت خلف تخوم النهر حيث الأجمة المتناثرة من أشجار السنط وهي تنحدر من جبال العاديات قبل أن يبدأ عشب السهل الأخضر الكثيف ذو الفجوات الحجرية الواسعة.

كان ثمة موسيقى صاخبة تخللها آذان العشاء تطغى على لغط المدعوين الملتفين حول الموائد الصغيرة المتقاربة، التي

جُلبت نهارا من محلات "كزام للأفراح"، والتي تراءت على مفارشها الزرقاء زجاجات المياه والكولا وأطباق الحلوى وسلال الفاكهة، أخذت تنبعث من مكبرات الصوت على جانبي منصة خشبية قصيرة أخفتها سجادتان كبيرتان من الصوف الفارسي ذي التشكيلات الوردية الملونة منصوبة غير بعيد من منضدة طولية لاحت أعلى مفرشها الأبيض النظيف تلال من الأواني الصينية اللامعة، فضلاً عن تورتة المحتفى بها بطوابقها الخمسة المتصاعدة في شكل هرمي علت قمته المزدانة بكريمة الشوكولاته السمراء شمعة منتصبة وحيدة بجناحي ملاك على وشك التحليق، حالما أُشعلت توقفت الموسيقى وعم الظلام وراحت تتشكل على مرأى من عيون السماء النجمية تلك الحلقة باعثة الأمنيات القلبية والهدايا، قبل أن تُنهي الحناجر أغنية عيد الميلاد في تزامن عكس مدى الألفة الذي عمّ المكان حينذاك.

"لماذا شمعة واحدة"؟.

تساءل المحافظ بقامته البارزة من وسط الحلقة لحظة أن عاد النور، بينما تغضن وجه رئيسة التحرير الجاد في نشاز كاد أن يفسد الطابع المرح لسؤال المحافظ ويحوّل الحفل بأكمله إلى حلقة نقاش ساخن حول "الطابع الذكوري للسلطة"، حسبما ظل يتردد في سياق إحدى الندوات التي ظلت تقيمها في دارها بصورة شهرية مجلة "نهضة المرأة"، لو لا أن اندفع في خضم الهمهمة المتصاعدة التي أثارها سؤال المحافظ وزاد من لغطها

الوجه الصارم الجاد لرئيسة التحرير صوتُ أمين حزب التقدم معيداً الأمور في لمح البصر بحركة مسرحية متقنة إلى مجراها القديم: "تقول لماذا؟، ها ها ها، هييء هييء، هو هو.. تلك تكتيكات الآنسة الأزلية، يا رفيق"!.

عاد المحتفلون إلى موائدهم فرادى وأزواج وجماعات، وبدا في ذلك المساء وكأن الكون برمته ضحكة مغناة يعزف لحنها المتناغم رنين تلك التعليقات المرح السعيد، إلا أن نملِ الغيرة أخذ يأكل في قلب فاطمة ببطء وتلذذ متزايد سعيداً بالخفاء الذي ضربه الضجيج من حولها.

كانت ترقب الأنظار بحسرة وهي تنصرف عنها تباعاً غير عابئة بالمرة بزينتها الفريدة والمكتملة أمام بهجة حفل لم تشهد المدينة مثله قطّ، ناظرة بين الحين والحين من مقعدها الغارق في النسيان أو يكاد إلى "وكالة رويتر المحلية" التي ظلت تتنقل بين الموائد تحت أنظار عيني أمّي الفخورتين مثل فراشة قمحية في الربيع، إلى أن تناهى إلى مسامعها مثل طلقة الرحمة، صوت أختي ذات السبعة عشر عاماً، وهو يعلن من فوق المنصة عن بدء الحفل الراقص، وقد نشبت في أعقابه موجة من الصفير والتصفيق الحاد المتصل فيما بدا بلا حدود لانتهائه.

مدت ذراعاً من داخل بلوزة بيضاء ذات أكمام قصيرة واسعة تدعى "مستقبل النساء الجميلات في عالم واعد"، كانت محشورة داخل بنطال من جينز أزرق ذي مقدمة مثلثة منتفخة

قليلاً ومسحوبة إلى أسفل بشدة، وقد أزاحت الهواء الذي حبس أنفاسه على حين غرة بحركة نصف دائرية بطيئة متكسرة لامست صدرها خطفاً، قبل أن تأخذ رأس البنصر وضعاً مستقيماً شق طريقه بين الموائد متخطياً بلا هوادة المحافظ ومدير بنك الوحدة ورئيسة التحرير مشيراً بلطف ومحبة يعلم الجميع مقدار ما فيهما من زيف إلى عيني فاطمة الشاخصتين كعيني غريق بلا أمل في النجاة.

في هذه اللحظة، في هذه اللحظة تحديداً، يمكن للمرء وفق رواية "وكالة رويتر المحلية" لاحقاً أن يسمع "رنين إبرة الخياطة" إذا ما أُلقيت في "مكان ما داخل الحفلة"، حتى أن المحافظ نظر إلى عطسة مدير البنك المباغتة نظرته إلى رجل طرق باب بيته "أثناء الجماع"، وسرى صوتها الحاد الرفيع ذو المنحنيات المبحوحة عبر مكبرات الصوت أخيراً:

"سيداتي آنساتي سادتي.. مشاعل حضارة هذه المدينة الواعدة.. مساء الخير الجميل وبعد.. وإنه ليسُر الأسرة الكريمة تشريفكم لها بالحضور.. بمناسبة حفل عيد ميلاد أختي الكبرى.. وبسبب صداقة الأسرة لطيار ماهر يعمل في خطوطنا الجوية الحبيبة.. أزف لكم ذلك الخبر الجميل.. خبر وصول آخر أغنيات فتى أسبانيا الذهبي "خوليو" وأنشودة الحبّ الفرنسي الساخن "جيلبير". وأعتقد أن أمام هذين الرائعين لا مجال لمطرب متواضع آخر مثل عثمان حسين...

"برافو... برافو برافو".

هكذا في الوقت الذي اتجهت فيه أنظار الجميع إلى فاطمة التي لم تحتمل أكثر وحمل وجهها من علامات الغيرة ما يكفي لإشعال غابة من أشجار السنط الغضة اقتحمت المشهد على حين غرة صيحة مدير البنك الذي نال درجة الماجستير في "اقتصاد الدجاج" من جامعة "السوربون"، والذي لم يستطع أن يتمالك نفسه فيما بدا أكثر من ذلك فأجهش في البكاء بغتة، آنئذ ربت المحافظ الجالس إلى جواره على كتفه كمن أراد أن يعتذر بعد أن تسبب في أذى روح طيبة كان ذنبها الوحيد أنها عطست في موقف لا يحتمل سوى الصمت التام، بينما أمكن للمقربين سماع صوت رئيسة التحرير وهي تهز رأسها كمن يتفهم بأسى وتعاطف عميقين عذابات الروح الخفية للإنسان، أي إنسان، وهو يقول: "البكاء (أيها السادة) ليس عاطفة نسائية فحسب"!.

مثل تحية صادرة عن قلب ملء نبضه الحبّ والأمل والمسرة والتفاؤل، مثل نسمة أوروبية تلثم مدارات خطّ الاستواء القائظة بعذوبة طفلة ورقة وردة، انساب حالماً مترعاً شفيفاً مطهماً بالمرح، تماما كيد المطر الخفيف الحانية، لحنُ رائعة جيلبير:

"إيه مينتونان"؟.

"وكالة رويتر المحلية"، التي سبق لها وأن ذهبت بنفسها "شخصيا" إلى البنك ذات نهار قائظ بعيد من شهر يونيو بعد أن تزايد الجدل في المدينة واحتدم حاملة في يدها مجموعة من

"الطيور المريضة" قبل أن تدرك ذلك "الفرق" أو" الاختلاف القاطع" ما بين "اقتصاد الدجاج" وذلك المدعو "طبّ الدجاج"، سألته باسمة عن سر كل "تلك الدموع الغزيرة وهي تفيض من عينيك أثناء الحفلة "، قال إنه تذكر وقتها " ليلة باريسية بعيدة "، ولم يُزد.

هذا التحول في "ثقافة إناث الأسرة"، الذي أزعج عند بدايته "وكالة رويتر المحلية"، بل وجعلها بكلماته "العصبيّة في أغلب الأحيان" تنظر إلى نفسها مثل نظرتها إلى "هاتف بلا حرارة"، لم يكن وليد يوم وليلة، فما إن حلت إجازة ذلك العام الدراسي، حتى أرسلت أمي أختيّ على عجل إلى العاصمة، حيث يعيش خالي الفنان التشكيلي وبناته المتحدرات من أمّ فرنسية، وحيث كانت عمليات "إزالة ما علقٍ من كآبة الريف" تجري على قدم وساق تحت شعار ورد أيضاً في رسالة أخرى رافقتهما إلى شقيقها الوحيد: "إنقاذ ما تبقى من شرف العائلة الكريمة"، بينما كاد مؤشر الراديو في غيابهما أن ينسى داخل البيت مثل أي جحود آخر في العالم ملامح "هنا.. أم درمان.. إذاعة جمهورية السودان الديمقراطية"، وقد أدمن التجوال حتى خلال الإجازات الدراسية اللاحقة بين الأقسام العربية لإذاعات "مونتي كارلو" وٍ"صوت أميركا"، ولم يكن ميالاً على أية حال للوقوف طويلاً عند الطابع الإخباري المتكرر لهيئة الإذاعة البريطانية. كانت أمّي تقول في تلك الأيام:

"ما فائدة الأنباء إذا لم تكن حضارية"؟.

كانت أختاي من الذكاء بمكان أن أجادتا الأكل بالشوكة والسكين في وقت وجيز، فضلاً عن ارتداء آخر موضات البناطيل الضيقة، مثل ذلك البنطال المدعو "لم يأخذ قلبي من قبل هيئة تفاحة"، إنها الملابس نفسها، تلك التي أدخلت أمّي لفترة من الوقت في دوامة من المتناقضات الداخلية العميقة، "يا الله، ما الفرق إذن ما بين العهر والحضارة"؟.

هكذا تساءلت ذات أصيل أعقب عودتهما الأولى من الخرطوم بأيام، وهي تراقب بقلق واضح ما بدا من ظهريهما في حيرة بينما تبتعدان عبر الفناء إلى زيارة ما كعارضتي أزياء هبطتا للتو من سياق أحد أخبار الموضة الأوروبية المتلفزة، لكن الرغبة في الانتقام من غريمتها فاطمة كانت تطغى آنذاك على كل احتمال آخر قد ينشأ داخل مركز تفكيرها المستثار منذ أن نطقتا باسم ذينيك المطربين الشعبيين تحت سمع وبصر "وكالة رويتر المحلية".

ما بدا في أول الأمر شاذاً وغريباً، بل ومستهجناً من قبل ما أطلق عليهم المحافظ في إحدى خطب عيد الاستقلال اسم " بُقع الرجعية في ثوب المدينة الحضاري الأبيض الناصع"، سرعان ما تحول إلى حمّى اجتاحت على فترات متقاربة "شبيبة المستقبل المشرق على مدارج التقدم"، وهي عبارة ذكرت "وكالة رويتر المحلية" أن أمّي قد تقالتها لأول مرة عند بدء سلسلة حفلات "الديسكو"، التي ظلت تقيمها في نهايات الأسبوع عادة، غير عابئة بتحذيرات أولئك "البُقع" المتكررة من

عواقب الاستمرار في "أعمال الفجور جالبة البلايا والأهوال". لقد كانت مشغولة وقتها عن "مكائد أعداء النجاح النكرة" بجهود "الصفوة" الحثيثة لإشاعة لعبتي "الكريكت" و"الغولف" في مدينة لا تعرف "للأسف الشديد" على حد قولها سوى مباريات "كرة القدم وسباق الحمير".

حين بدأ جمع التبرعات لبناء "مسرح يليق بسمعة المدينة الحضارية"، على حد تعبير أمين حزب التقدم النشط، قالت أمّي وهي ترجع بظهرها إلى مسند الكرسي وقد ظهرت عليها إمارات التعب جلياً إنها بدأت تشعر كمن يحلق في الفضاء بجناح قوي وحيد. أدرك أبي مغزى الرسالة على الفور، فتقمَّصت روحه الرغبة الصادقة لتقوية الجناح الآخر طواعية مثل "رجل حضاري بالغ التفهم إلى درجة"، قائلا كمن يهب للقيام بإحدى المهام التي تتطلب استعدادا خاصّا: "لابد وأن تحتفظ الأسرة بموقع الصدارة الحضاري في المدينة بأية وسيلة". هكذا اندفع بحماس ثوري "منقطع النظير" إلى المشاركة في "الأعمال المنزلية"، كأن يقوم بتنظيف الحمامات والمراحيض ليلاً، كان يفعل ذلك "إسهاماً شخصياً من جانبي" كما كان يحلو له أن يقول لحظة الانتهاء من تقطيع حزم البصل إلى حلقات صغيرة في "دعم مجهود مامتكم الحضاري".

"وكالة رويتر المحلية" التي تكاد أن تشرف حتى على "تلاقح الضفادع في الخريف" وفق ما جاء على لسان ناظر

المدرسة الأميرية "الذي غدا عصبياً على نحو واضح بعد كبيرة مُسيلمة الكذاب" أشاعت أن أبي كان يفعل ذلك "في واقع الأمر" مخافة أن يُدرج اسمه ذات يوم في "القائمة السوداء الكابية"، التي ظلت تنشرها من وقت لآخر مجلة "نهضة المرأة " بدعم شخصي من المحافظ نفسه كما يُردد في الخفاء عادة، وهي قائمة تضم "أسماء الأزواجِ الذين ظلوا يمارسون التمييز ضد المرأة داخل المنازل سراً"، على الرغم من مظهرهم "الحضاري الجبان المُخادع"، حسبما ورد في إحدى افتتاحيات رئيسة التحرير، فيما هي تقدم لأولئك "السيدات القارئات/السادة القراء" باباً جديداً حمل عنوان: "نحو تعليم الرجال فنون المطبخ العصري"، وترد في الوقت نفسه على رسالة مطولة "موقعة بالأحرف الأولى فقط"، كانت قد بعثت بها "إحدى السيدات الثائرات"، تمنّت خلالها أن تتحرر المرأة في "القريب العاجل" وأن تشهد "إن شاء الله" بنفسها "ذلك اليوم الذي تفرغ فيه المرأة مثانتها على قارعة الطريق مثل أي رجل عادي".

على خلاف صلاح "زوج فاطمة" الذي ظل لوقت طويل كمن يتأرجح على الهاوية، أدرك أبي من خبرة أسلافه التجار أن المسئولين أصحاب الحل والعقد في المدينة كانوا "وراء نماء شجرة المحصول الحضاري الوفير"، فبدأ مبكراً في إخماد نار "التقاليد البالية" التي بدأت تشتعل في البداية على فترات متقاربة تحت مظهره كمفتش زراعي من الدرجة الثالثة، متغاضياً حتى عن انتهاك أشياء كان يراها من "الثوابت"، كأن يبارك رغبة أختي الكبرى في أن تعمل بمثابة "موديل" لطالب

"موهوب جدا" كان يدرس في "كلية الفنون الجميلة" أثناء دراستها في الجامعة، "إسهاما من جانبي" كما كانت تقول متأثرة بآراء خالي كفنان تشكيلي "غريب الأطوار" في "استكشاف جوهر جماليات الجسد الأنثوي الذي أخفاه ثوب التخلف التقليدي لقرون خلت ". أختي تلك، تعيش الآن في منفاها الاختياري البعيد في كندا على أعتاب شيخوخة باردة، وحيدة مع أحداثها الماضية، وبالكاد ترسم على وجهها إبتسامة باهتة لذكرى تلك الأيام البعيدة، بينما تتمعن في أشياء لا وجود لها، ظلت بدورها تهمي بتثاقل وتناغم مع خيوط الجليد المتتابعة وراء تلك النافذة الزجاجية في رتابة، وقد بدا لي أن وجودي إلى جانبها في ذلك المساء على هامش مؤتمر دولي كنت أحد المشاركين فيه كوجود شيء لا تريد أن تتذكره.

ربما، أو لهذا "الوفاء الحضاري"، حسبما أوضحت "وكالة رويتر المحلية" مخففة من شواظ ظهيرة ألمت بمدير البنك في إحدى لحظات انقطاع التيار الكهربائي المتكرر، مُنح أبي ترقية استثنائية داخل "الهرم الوظيفي". مهدت له الطريق إلى العمل في المقر الإداري للمؤسسة الزراعية بعيداً عن الريف بمياه شربه "الراكدة" وهيئة سكانه التي كانت تذكره دائماً بحظه "العاثر" في الحياة. "أيها السادة زارعو بذرة الحضارة مَن قال من قبلي أنا شخصيا إن حقول السعادة يمكن أن توجد من غير أعشاب ضارة"؟. هكذا شرع أبي يتفلسف في عمله الجديد، مستشعرا وطأة الفراغ بين جدران مكتب فخم به ثلاجة صغيرة "فاضت قنواتها عن آخرها بعُلب المياه الغازية"

تدخله فقط وعلى فترات متباعدة وجوه حليقة "معنوياتها لا تشبه بأية حال نضرة الأزهار الساحرة على حافة جدول صغير"، حتى أن أفكاراً غامضة حول الحياة والموت قد بدأت مثل الجراد "تداهم تلك الحديقة المُبهجة في الربيع"، الأمر الذي لم ينقذه منه شيء سوى زيارة الأسرة إلى بيت مدير عام المؤسسة الزراعية في "عيد الحبّ".

كانت سانحة طيبة أهداه خلالها المدير مجموعة أعداد "نادرة" من مجلة "مودة" اللبنانية، حيث بدأت تتكشف لديه شيئاً بعد شيء تلك "الموهبة"، التي ظلت مطمورة مثل كنز "تحت تربة بستاني" لسنوات قضاها "يا لضياع حصاد شبابي... بين ضراط بهائم الفلاحين الهزيلة". لقد بدأت بالفعل تتكون لديه كما قالت أختي الأصغر التي كانت بدورها تستعد لدخول الجامعة "ثقافة حضارية رهيبة المستوى الإنساني"، انصبت بدرجة أساسية على معرفة مختلف "أنواع وخصائص وأسماء العطور العالمية". كان ينتهز في مجالسه تلك أدنى بادرة، أدنى أدنى بادرة، كأن تقول أنت لا قدر الله "إن الهواء منعش ولطيف هذا المساء"، حتى يمطر آذانك بأسماء عطور وروائح زكيّة لا يعلم إلاّ الله ما هي؟. ثم لا يهم بعد ذلك وهو يشرع أمامك في بيان مميزات عطره هو المفضل نظريا إن كانت لديك وقتها الرغبة الأكيدة والملحة في الدخول إلى المرحاض بأسرع قدم لديك.

في المقابل، بدا أن لهذه "الحضارة" دموع قلّما رآها عالم المدينة الضيق، وإن سمع عنها حذ الرثاء أو الشماتة في بعض الأحيان، وتلك هي دموع الجارة ... أو أحزان فاطمة "الخفيَة"، التي كاد أن يفضي بها "نجاح ماما المذهل" إلى "جنون خرافي"، على حد تعبير أختي الكبرى التي عادت ذات إجازة بوجه مستثار حاملة لأمّي أنباء عن أهمية قيام مظاهرات طلابية في "العام التالي" تطالب الحكومة بإصدار قوانين صارمة تتيح للزوجة أن ترفع ضد الزوج قضية طلاق وتعويض مالي ضخم في حالة ما إذا "ركب رأسه وصمم على ختان البنات"، لكنها أبداً لم تحدثها عن تلك الخطط السرية لتلك المظاهرات بشأن القانون "سييء الذكر" الخاصّ و"العياذ بالله" بكفالة حقوق "المثليين" في المجتمع. هذا ما أدركته قبل أشهر قليلة فقط في "دار الوثائق المركزية" أثناء بحثي وتنقيبي ومراجعتي في ظل موجة غامرة من الحنين لبعض "صحف ومجلات تلك الأيام".

زاد من حزن فاطمة أن زوجها، "صلاح بتاع دكان التخلف الشهير مثل نجم أسود في رابعة النهار الحضاري العملاق"، قد عاد في ذلك الصباح إلى البيت يشمله حزن ثقيل مقبض. دلف وقتها صافقاً باب الحوش وراءه، و"سيبقى صدى هذه الصفقة المدوي يتردد طويلاً" في أنحاء المدينة. حدث ذلك بعد ذهابه إلى الدكان بنحو الساعة أو أكثر قليلاً، كانت وقتها داخل المطبخ، تعد "طعام الغداء"، ظنت في البداية أن ابنتها الوحيدة "أمل"، التي غادرت منذ دقائق إلى مدرستها، قد نسيت

شيئاً ما، ثم عادت لتسترده على عجل، لكنّ هاجساً غامضاً دفعها إلى الخروج وقتها لمطالعة ذلك القادم الصاخب.

"المسكينة... لم يرد إلى ذهنها... حتى تلك اللحظة.... أن المرحوم والد صلاح زوجها... الذي كان يمتلك نسخة أخرى من مفتاح باب الحوش... قد يعود غاضباً ذات يوم... وقد أضجرته رقدة المقابر الطويلة المملة".

على هذا النحو، خرج الكلام من فم "وكالة رويتر المحلية"، وهي تحاول جاهدة أن تضع بعض التوابل على حكايتها في محاولة لتبديد ما تبقى من كرب ارتسم على وجه المحافظ عقب "زيارة ذلك الوزير المتعجرف التفقدية... المفاجئة"، وقد لاحظ هو في أثناء إنصاته ولأول مرة تلك الشعيرات البيضاء التي غزت رأس "وكالة رويتر المحلية" في وقت وجيز، عندما قالت له: "وذلك المسكين أيضاً.. يا سيادة المحافظ الهمام.. بعد أن قفل باب الحوش".. مشي ببطء .. وقد أحنى رأسه.. حتى أنه تجاوزها.. دون أن يُلقي عليها نظرة واحدة.. "و"قسماً بالله ثلاثاً".. كما يقول الحاج محمود.. لو بُعث المرحوم والده من القبر حيّاً .. لما تعرّف عليه داخل تلك الملابس.. التي فرضتها عليه زوجته فاطمة.. كما تعلم.. بعد عودة بنتي جارتها بعد قضاء إجازتهما الأولى في الخرطوم مع خالهما زوج "الخواجية".

كان يرتدي بنطال "كوردرايت" أزرق ذا نهايات واسعة يعلوه قميص أحمر ذو أكمام جدُّ قصيرة أُطلقت عليه عبارة دارجة طويلة مفادها: "ذراعاه المشعرتان تحتضنان صيف حبيبة حضارية ماطر برغم الجفاف"، منتعلاً حذاء من "الكموش" الأخضر الباهت ذا قاعدتين مرتفعتين تحدثان لدى ملامسة الأرض "صوتاً مكتوماً"، ولربما.. أو لهذا الصوت تحديداً، كان الرجال يقبلون على شرائه، "صوت" أطلق عليه سادة الموضة في المدينة عبارة لا تقل اشتعالاً في جيشانها العاطفي عن سابقتها: "مشية الحضاري الأوروبية المُتقنة على أرض الأحلام".

لقد تبدلت أسماء أشياء عديدة في تلك الأيام، حتى أن الحاج محمود قد وجد نفسه فجأة وهو يتساءل ذات يوم بغرابة شديدة، مخاطبا "وكالة رويتر المحلية"، بصوت نسجت نبراته الدهشة، قائلا بكل تلك الحيرة:

"يا وكالتنا، من أين يأتون بأسماء الشيطان هذه"؟.

سارت هي وراءه، وقد وافقت خطاها الملتاعة إيقاع خطواته البطيئة المثقلة، "لابد أن كارثة أخرى في طريقها إلى تدمير ما تبقى من سلام المنزِل"، هكذا حدست فاطمة، وهي تتابع تطاير ورقة صفراء نُزعت على نحو من الأنحاء من كتاب "ألف طريقة وطريقة لصناعة الحلوى"، حقا ما عادت الأشياء كما كانت عليه الحال في "أيام مهرجان الخطباء" البعيد، عندما كانت جملة واحدة كافية لتبديد كل تلك الحروبات

الصغيرة، أجل... ""قل لهم إن فاطمة مشغولة الآن بمشكلات تخصّ الدولة شخصيا".

كانت "الهزائم الحضارية المتتالية"، على حد تعبير ناظر المدرسة الأميرية المعنِي بتدريس "تاريخ حروبات المهدي"، قد حفرت في نفسها عميقا، لقد أصابتها بنوع من "اللامبالاة" في تلك الأيام، قبل أن تنتفض مثلما ينتفض البطّ أثناء ركضه الأخير، وقد تم "قطع رأسه".

كان ثمة ريح شمالية جافة واهنة شيئاً ما، تزيل ما تبقى من نداوة ذلك الصباح، وهي تتخلل أغصان شجرة الليمون في أقصى الحوش، ثم تدفع بأوراقها المتساقطة الجافة نحو "مشية الأوروبي المتقنة" البطيئة الحزينة هذه المرة. أخيراً تهالك على مقعد داخل الفرندة ذاتها التي شهدت وقائع دعوة أمّي لها لحضور حفل عيد ميلاد أختي الكبرى التاسع عشر البعيد، وقد بدا غائم النظرات، وهو يشبك يديه وراء رأسه، ماداً ساقيه الملتفتين نحو طرف سجادة فارسية شديدة الحمرة، بينما علا أزيز الثلاجة "كولدير" الجاثمة على يمينه في تزامن مع صوت الريح التي أخذت تولول في الخارج على حين غرة.

كانت لا تزال واقفة إلى يساره داخل "قميص النوم الوردي الشفّاف"، وقفة سيدة حائرة لا تدري ما يمكن أن تفعله غير مطالعة العالم وهو يغرق أمام عينيها شيئا بعد شيء، ولا تدري أية مصيبة ستقع على رأسها بعد الآن؟. "يا ترى.. بعد مرور كل هذه السنوات.. ألا تزال ذكرى والده تؤلمه إلى هذه

الدرجة؟.. أخبرني بالأمس فقط أنه ظل يزوره في المنام كثيراً.. قال إنه يسأله بنصف لسان دائماً.. يقول له.. يا صلاح.. يا ولدي العاق.. لماذا تفعل هذا من بعدي.. ثم يؤنبه بوجه يسيل من جانبيه الدود.. يا صلاح.. يا ولدي.. أمركم الآن لا يعجبني". عندما أتت "وكالة رويتر المحلية" للمرة الثالثة على ذكر الموت "على هذا النحو المقزز"، تلاشت ابتسامة المحافظ، وتقبض وجهه، فطفق ينظر مشمئزاً عبر نافذة مكتبه الزجاجية المطلة على ميدان الحرية الواسع، قبل أن يعود كما كان في السابق متابعاً مجرى الحكاية "الشهيرة" بدقة بوصلة في "أعالي البحار".

في تلك اللحظة، حين تراءى أمام عينيها مثل طيف حبيب آخذ في الذوبان والتلاشي شيئاً بعد شيء، اقتربت منه خطوة، ثم بصوت مرتعش خفيض، خرج من بين شفتيها المرتجفتين، ذلك السؤال الذي ظل يغلي في دواخلها طويلاً كمرجل:

"ما بك، يا (أبو أمل)"؟.

وقد تدحرجت دمعته الخرساء أمام عينيها لأول مرة:

" لاشيء".

ما إن اقتربت منه أكثر ماسحة على رأسه براحتها التي كانت تعبق برائحة خليط الثوم واللحمة وشرائح البطاطس الطازجة، حتى حدث ما لم يخطر من قبل على ذهن امرأة

ظننت نفسها إلى ذلك الحين أنها بمأمن تام، وقد "قطعت في سباق الحضارة خطوات" لا يمكن اللحاق بها.

هبّ لحظتها واقفاً دافعاً إياها نحو السجادة بقوة أسقطتها أرضاً، ثم استدار بجزعه كله وأخذ يدق حائط الصالة بقبضتيه ناشجاً منتحبا كطفل، قبل أن يمزق على التوالي القميص الأحمر وبنطال "الكوردرايت"، قاذفاً بحذاء "الكموش" كيفما اتفق لتستقر إحدى فردتيه على رأس الثلاجة كولدير كما بدا لعينيها المذعورتين في "كآبة". كانت تحاول جاهدة أن تلملم ما تبقى لها من أعصاب، وهي تزحف نحو ركن بعيد وتراقب بعيني فأر بركان الغضب الذي تفجر داخل زوجها..... بغتة، كانت قسوة الحائط تضغط على ظهرها، المسافة القصيرة تضيق، وكثيرة هي الدموع التي سالت على وجنتيها قبل أن يتوقف أخيراً وهو يُحكم قبضته على ذقنها المرتعشة، هكذا هكذا، عوضاً عن تحقق كل تلك المخاوف، وجدت نفسها منطرحة على تلك السجادة، عارية تماماً، ساقاها معلقتان على كتفيها، مسامها تتشرب ذلك الخدر الكثيف الغامر مثلما تتشرب الأرض الجافة كوب الماء في نهار ملتهب، بينما يداها تتقبضان وتتبسطان ثم تمسدان ما أمكنها من ظهر ذلك الثقل الجاثم فوقها بذهول وتسليم أزلي مطلق وخالد، بينما هو يعلو ويهبط ويزحر بين أحضانها المشرعة كخمر النسيان العتيقة مثل ثور.

هنا، هنا فقط، خطر على ذهن الحاج محمود ذلك السؤال:

"كيف يتسنى الكلام لعانس.. لم تذق طعم الرجال قطّ... وتصف مثل هذه المسائل... بمثل هذه الطلاقة والفصاحة والدقة التي يسيل لها كما الأنهار لُعاب المراهقين أنفسهم"؟. عبر تلميحات غامضة وطرق ملتوية عديدة، طرقت النميمة في الأخير آذان "وكالة رويتر المحلية". لم تغضب، أو تحاول نفي التهمة المبطنة عنها، كانت تدرك بفطرتها الثاقبة تلك الحقيقة العلمية القائلة "إن النار لا تخمدها تماما سوى نار أخرى"، وسمعة المرء مثل غابة "آش"، اشتعلت فيها مرة نار الشائعة، وإذا لم يتم إشعال نار أخرى صغيرة تحيط بمركز الضرر، احترقت الغابة بأكملها. آنذاك، ردت على السؤال بسؤال مضاد أحال التهمة برمتها إلى طرفة، بعد أن وضح لها مصدر الهجوم الحقيقي عليها، قائلة بذات التهكم والفصاحة اللازمين في مثل هذه المواقف: "وكيف (يا ناس)، بالله عليكم، أن يتأتى لمُسيلمة الكذاب أن يعرف ما دار في (ذهن) الحاج محمود وقتها، الأسرار من عمل خالق الناس والحمير وحده"؟.

في أماكن أخرى أشاعت "وكالة رويتر المحلية" أن "مصادر لا تكذب أبداً"، قد أخبرتها أن أبي "الذاهب إلى عمله في مكتبه المزدحم بنباتات الظل والمزدانة شرفاته بزهور الياسمين البيضاء" قد قضى في ذلك الصباح على صلاح "زوج فاطمة" بلكمة "حضارية معتبرة في قعر داره"، موضحة أنه

كان يبيع شيئاً "لم تذكر المصادر اسمه" لمجموعة من "الشابات الحضاريات الذاهبات إلى عملهن في مجلة نهضة المرأة"، عندما توقف أبي "الذي بدا وكأن الأرض انشقت عنه فجأة" أمام الدكان، مخاطباً جاره من وسط الشارع بصورة "أثارت ضحك الحضاريات الكظيم الساخر"، قائلاً:

"أيها الجار الطيب.. ثم لندخل في موضوع الساعة الحضاري مباشرة.. لقد شكا لي شباب المستقبل النابغة.. مرير الشكوى طبعاً.. أن البضاعة خاصتكم خالية من العطور الحديثة.. وطبعاً أنا أعتقد جازماً منطلقاً من موقعي المعتبر كحضاري نافع لوطنه وبني جلدته.. أن لإصراركم على بيع عطور "متخلفة" مثل "بنت السودان"... ثم "خيول جيش المهدية على مشارف الانتصار"... وحتى طبعاً وبالتأكيد "كولونيا خمس خمسات المصرية".. لهو طبعاً أمر معيق لعمل المسئولين الكبار في "هذه المدينة الحضارية" من أجل التقدم السعيد للبشر".

وأضافت "الوكالة" في حينه نقلاً عن ذات "المصادر التي لا تكذب أبدا" أن صلاح "زوج فاطمة" لم يفعل شيئاً وقتها "سوى أنه فتح وقفل.. ثم فتح وقفل... ثم فتح وقفل فمه في بلاهة تاريخية تسببت في بعث موجة أخرى من ضحك الحضاريات الساخر".

و تلك على أية حال لم تكن مأساة فاطمة الأخيرة "في سباق الحضارة المحتدم قدما"، على الرغم من أنها بحسب ما

جاء في أحد المجالس قد "عادت عليها بفائدة لذيذة"، وهو ذات المجلس المنعقد في وقت الظهيرة داخل الميناء أثناء راحة الحمّالين أسفل إحدى أشجار الكافور الضخمة العتيقة العائدة إلى أيام الإنجليز، حيث أشاد أحدهم آنذاك وهو حمّال له "جسد عملاق وخيال شاعر" بما أسماه وقتها "شياطين وكالة رويتر المحلية الخاصة" الذين أخذوا دائما "يخبرونها في الليل والناس في سابع نومة بأدق تفاصيل أسرار المدينة حتى لقد جاء أحدهم إلى الحاج محمود ذات منام في هيئة كلب أسود له غليون يقدح منه الشرر ليُشهده بدوره على واقعة مُسيلمة الكذاب ويخبره بذلك عما يخجل هو نفسه من فعله حتى لا يصب بعد ذلك اللعنة عليه وحده".

شيئاً فشيئاً أحياناً، وعبر قفزات نوعية "حاسمة" أحياناً أخرى، بدأ ذلك "البون الحضاري" في الاتساع بين الجارتين القديمتين، سوى حروب النميمة والشائعات، سوى تبادل ذلك الهجاء صراحة أو ضمناً عبر الجدار الفاصل "إذا لزم الأمر الحضاري"، لم يعد ثمة ما يصل بينهما خلال الآونة الأخيرة، عدا شخص واحد، لعلكم قد عرفتموه الآن يا أصدقائي...

أجل..... "وكالة رويتر المحلية" نفسها، التي ظلت تحتفظ على نحو شديد البراعة و"الدهاء الفطري الخارق" وفي ظل أحلك الظروف بعلاقات طيبة مع جميع الأطراف في تلك المدينة، وهو أمر توضّح لاحقاً، حين ماتت في النوم ورأى الناس:

كيف سار أبي وصلاح وأمين حزب التقدم والمحافظ وأعداء آخرين كثر خلف نعش واحد، حتى أن الحاج محمود نفسه قد أخذ يتوكأ على كتف غريمه "التاريخي" مسيلمة الكذاب "شخصيا" ومضيا هكذا متقاربين واجمين متأثرين، لكأنهما في طريقهما لدفن عداوات قديمة، أو لكأن قانوناً آخر كان يحكم تلك اللحظة العصيبة من حياة المدينة.

بينما موسيقى "البيتلز" وفرقة "البوني إم" الصاعدة بقوة آنذاك أو لربما كان ذلك "جيمس كليف" فضلاً عن أسطورة الغناء الفرنسي "أديث بياف" تصدح خلال حفلات "الديسكو" من جهاز أهدته المحافظة إلى أمي في أحد مهرجانات "عيد الربيع" – "تقديراً لجهودها الحضارية الرائدة"، كانت فاطمة تسعى في نفس التوقيت إلى إقامة "طقوس السحر وشعائر الزار البائدة" حسبما أشارت إليه مجلة "نهضة المرأة" أثناء حملة صحفية استهدفت في حينه "جيوب التخلف في المدينة"، إلى أن جاءت "قشة الغريق" في ذلك اليوم وتراقصت أمام عينيها تراقص البرق أمام مزارع حرث الأرض وبذر ثم تسمّرت عيناه قبالة الأفق الشرقي في انتظار أن يهطل المطر بعد عناء محل طال الأخضر واليابس ولم يذر. "وكالة رويتر المحلية" أشارت إليها وقتها بشيء قال عنه الحاج محمود وهو يضرب كفاً بكف، وقد بدت على مُحيّاه علامات "وجع الظهر" المزمن بصورة جليّة:

"هذه فكرة لا تخرج والعياذ بالله إلا من رأس شيطان".

وقعت تلك "الأنباء الجديدة" على رأس أمّي في البداية وقع الصاعقة في خريف استوائي عارم. حتى أنها أخذت تعاني من حمّى الملاريا في غير موسمها لثلاثة أيام وليلة. كان من العسير عليها حقا حيال "أصالة تلك الأنباء" مجرد التفكير في أنها "لم تفكر" في الواقع جيدا في توزيع مجهودها أثناء "السباق الحضاري" بالتساوي، بينما شرع أبي في بعث نزعته الفلسفية أثناء هذيانها الليلي من جديد، كان يقول بشيء من حسرة العميان: "الوصول إلى قمة حضارة المدينة ليس هو الهدف. وذلك أمر فات علينا. نعم نعم. الهدف هو كيفية الحفاظ على تلك القمة إلى الأبد".

لقد أتاح صمت أمّي الطويل في تلك الأيام للشائعات المختلفة فرصة أن تنمو وتزدهر حتى في "أقصى بقاع المدينة". أذكر الآن جيدا تلك اللحظة التي أفاقت فيها من هذيانات الحمى بوجه شائخ وجسد شاحب هزيل. لقد بدا كما لو أنها عثرت على نفسها فجأة بعد سنوات طويلة من غياب سادت خلاله "أحزان بالجملة لا مبرر لها". قالت وقتها والدمع ملء عيونها: "يا أولادي، ينبغي على المرء في هذه الحياة أن يعرف جيّدا متى يتوقف من ترديد الهراء". هذه الجملة، حمّالة الأوجه، سرت في المدينة مسرى النار في الهشيم، ولم يعد بوسع أحد بعدها أن يتنبأ بما يمكن أن تؤول إليه أوضاع "السباق الحضاري بين الجارتين" مستقبلا، حتى أن الحمّالين في الميناء النهري أنفسهم قد آثروا النوم في أوقات الراحة أسفل شجرة الكافور العتيقة إلى حين أن "تتجلي حقيقة الأمور".

في مثل تلك الظروف، ما كان لقوى على ظهر الأرض أن تمنع فاطمة من "تذوق طعم الانتصار الحضاري" مرة أخرى، حتى لو تعلق الأمر هنا بتنفيذ "فكرة خارجة من رأس شيطان أحمر"، وبدا أن مجتمع "الصفوة" وهو يتقبل فاطمة في صفوفه مرة أخرى كأب يفتح ذراعيه أمام "عودة الابن الضال"، إذ بلغها أن "رئيسة التحرير الولود حتى على مشارف سنّ يأسها" قد أخذت تديُر القلم من طرفيه، وهي تتلقى "نبأ انبعاثها الفاطمي المبارك" من جديد، وما إن تيقنت من "عناصر النبأ"، وكانت تضع هذه المرة رأس القلم بين شفتيها، حتى ابتسمت داخل مكتبها لأول مرة، وتساءلت بغنج "لا يليق سوى بعجوز متصابية"، على حد تعبير مسيلمة الكذاب، قائلة:

"وهل يمنع عُسر الولادة من تكرار الشيء نفسه مرة ومرة"؟.

راقت صلاح فكرة "الانتقام التاريخي" تلك، وما بدا أنه الحياة عاد يدب شيئاً بعد شيء في عروق شجرة الليمون، التي لم يذق حوضها المُزدان حديثاً بالطلاء الجيري وعلى مدى عام كامل شحّ خلاله المطر سوى دم القرابين المقدمة أسبوعياً أثناء شعائر الزار وتلك الطقوس، وصورة والده المعاتبة، لم تعد تقلق منامه، حين عاد إلى ارتداء "الملابس الأفرنجية" طواعية هذه المرة.

لكأني أراه الآن، بعد كل هذه السنوات، وهو يقتني موضة ذلك العام، مفاخراً على أبواب الستين بقميصه الوردي

الذي أطلق عليه سادة الموضة في المدينة عبارة يقال لشدة توهجها إنها "خادشة لحياء منسي" مفادها "هاهنا.. حبيبتي..... مستقر حلمتيك"، وقد أخذ من حين لحين في مجادلة الحاج محمود حول "حرمة الذهاب به إلى صلاة الجماعة عامة والجمعة خاصة"، مؤكداً على الدوام من داخل تلك "الثقة الهائلة" أن: "النجاسة.. يا حاج.. ليست في التسمية.... بل في الملابس نفسها"، فانياً تماما في عشق بنطال التيل البني ذي الجيوب الجانبية الواسعة المنتفخة "مرحباً تكساس"، وأي صوت كانت تصدره قدماه عندما ينتعل في المناسبات الخاصة "حذاء خروتشوف الأممي الرهيب"؟.

آنذاك، وقد لاحظتْ أن "السباق الحضاري" لم يعد "مثيراً" كما كانت عليه "أوضاع المنافسة المحتدمة" بين الجارتين حتى "عهد قريب"، أشارت "وكالة رويتر المحلية" قبل رحيلها بشهور معدودة إلى فاطمة بضرورة أن تسافر ابنتهما الوحيدة "أمل". كانت تتحدث بكلمات هزّت نبرة الصدق فيها شغاف قلب فاطمة "الذي لم تنصفه الأيام الماضية كثيرا"، موضحة لها بهيئة "الناصح الأمين" نفسها أن في "بلاد الخواجات: لندن" يمكنها أن تتعلم "النجاح الحضاري من منابعه الأصلية". وقالت "وكالة رويتر المحلية" مواصلة حديثها إلى فاطمة بحكمة مَن شارف على الموت "ما عجز عنه الآباء.. يا بنتَ أمّي.. يحققه الأبناء". هكذا، دون أن يدري، وقع صلاح "زوج فاطمة" تحت وطأة مطالب ثقيلة قادته في ظرف أقل من عام واحد إلى إعلان إفلاسه كتاجر صغير، بينما انقطعت

أخبار ابنتهما بعد سفرها بنحو ثلاثة أشهر، وحتى الآن، يا أصدقائي، مازلت أتساءل: كيف ستقف "أمل"، إذا ما عادت في يوم ما، على قبر والدتها، الذي محتْ الأمطار معالمه منذ أمد بعيد؟.

المحتويات

كانت الشمس تشتعل في منتصف سماء جرداء. شجرتا النيم تقبعان على جانبي مدخل الدار. تطلان على الشارع المقفر في صمت. لكأنهما سقطتا على حين غرة من لوحة رسّام أراد في لحظة إلهام جنونية تصوير الحياة كبستان خال من الهواء. وثمة ديك ملتاع حزين يرتفع صوته بوهن وفتور من مكان ما في الجوار. أما أرض الفناء الترابية الكابية فقد كانت تلتمع بعشرات الشظايا الزجاجية الصغيرة المتناثرة هنا وهناك. "إنه الصيف"، علا صوت إحداهن لحظة صمت وهي تتأمّل العالم المحترق خلف النافذتين، وبينما الحوائط تختزن الصّهد لتنفثه بعد ساعات رئة المساء المعتمة، ما كان بوسع أكثر الناس قدرة على التوقع أن يتنبأ بما آل إليه مجلسهن من حوادث تبدو لي الآن مثل نغمة حزينة من أنين القوافل البشرية السائرة عبر القرون بلا توقف أو عزاء.



تصميم الغلاف: أحمد كامل

دار شرقيات